التنظيمات العسكرية الأيوبية في بلاد الشام

(٥٧٠ - ٦٤٨هـ/ ١١٧٤ - ١٢٥٠م)

د.خالد سليمان الشريدة
مجلس أبوظبي للتعليم

يبدو أن الطابع العسكري قد فرض نفسه على ثقافة عصر الحروب الصليبية المتنقلة ما بين الإدارة السلجوقية والزنكية والأيوبية والإدارة المملوكية المتماثلة في بلاد الشام خاصة، هذا وإن كان الدليل الصادق الممهد للحسم العسكري - في اعتقادي - بالأثر العلمي دائمًا، لا بقوة السلاح كما رآه بعضهم، إذ يقول صلاح الدين مخاطبًا جيوشه بعد أن حرر الله القدس على يديه: "لا تظنوا أني قد فتحت البلاد بسيوفكم؛ بل بقلم القاضي الفاضل"(١)، وزير دولة بني أيوب

---

(١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م). الوافي بالوفيات، ج١، باعتناء هلموت ريتر، نشر فرانزشتاينر، فيسبادن (١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م)، ج٢، ٣، ٤، اعتناء ديد رينغ، نشره نفسه (١٣٨٥هـ/ ١٩٧٤م)، ج٥، نفسه (١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م)، ج٦، نفسه، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ج٧، اعتناء إحسان عباس، (ن.م)، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ج٨، اعتناء محمد يوسف نجم، (ن.م)، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ج٩، اعتناء يوسف فان إس (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ج١٦، اعتناء وداد القاضي (ن.م) (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ج٢٤، تحقيق محمد عدنان البخيت ومصطفى الحياري، (ن.م)، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ج١٨، ص٣٥٠.

وكاتبها الأول عبدالرحيم بن علي بن محمد بن الحسن البيساني العسقلاني (٥٢٦ - ٥٩٦هـ/ ١١٣١ - ١١٩٩م)، وطالما غاصت أقلام الأدباء والمؤرخين بالحديث عن الثقافة العسكرية السائدة، وذلك من خلال ذكر آلة الحرب وقيادتها واستراتيجيتها القتالية، هذا وإن اتسم بعضها بالموضوعية والحياد، إلا أن بعضها الآخر لم يمنعه هوى نفسه وعاطفته من التحيز إلى طرف على حساب طرف آخر، بل التغاضي عن نكسات طرف ومثالبه على حساب طرف، وإن كان مثل ذلك الاتجاه قد ساد، فبرزت لدينا بالإضافة لما ذكر في جنبات المصادر الأصيلة والدراسات الحديثة دراسات متخصصة في العروض الحربية والظواهر العسكرية خاصةً، والتي تفيد البحث في عرضها لأهم الأسلحة المستخدمة، ومن خلالها نستطيع أن نستقصي بعض التنظيمات العسكرية السابقة واللاحقة للعصر الأيوبي، وذكرنا بعضها من خلال ما زودنا به الآخرون في عرض دراساتهم، ولم نستطع - مع الأسف - الوصول إلى بعضها، ولم تذكر كتب التراجم سيرة مؤلفيه بين جوانبها.

ومن هذه الدراسات ما هو مخطوط في مادته - حسب اطلاعي - وإن كان ركنًا لا غنى للباحث عنه، ومنها ما حقق ونشر، هذه الدراسات التي جعلت من الصراع الإسلامي الصليبي تعميمًا غير مبرر لثقافة الفترة الأيوبية وما سبقها ولحق بها، وإلا لما كانت تلك الهُدن والاتفاقيات المعقودة المتعددة بين الطرفين، ولما كانت ظاهرة المسالمة

والإدارة بالمقاسمة - المناصفات - بين الأطراف، وخاصة في بلاد الشام.

ونعود إلى تلك المؤلفات المخطوطة؛ ومنها: "المقترح في المصطلح في رمي البندق والصيد"، ألفه ابن البقال محمد بن محمد، المتوفى سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) للخليفة العباسي الناصر الذي عاصر هذه الفترة، وكتاب "التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعات الحربية"، لمؤلفه محمد بن منكلي العلمي، المتوفى سنة (٧٧٥هـ/ ١٣٧٦م)، وكتاب "هداية الرامي"، لمؤلفه محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري، المتوفى سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، وكتاب "رمي النشاب"، لمؤلفه التلواشي، وكتاب "الأنيق في المناجيق"، لمؤلفه ابن أرنبغا الزردكاش، المتوفى سنة (٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م)، وكتاب "غاية الإتقان في أعمال النشاب والصولجان"، لمؤلفه الطمش، ورسالة "ثلاثة مذاهب خاصة بالفروسية والرمي"، لمؤلفها جمشار الخوارزمي، وكتاب "الفروسية والمناصب الحربية"، لمؤلفه نجم الدين حسن الأحدب الرماح، المتوفى سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، وكتاب "القول التام في الرمي بالسهام"، لمؤلفه السخاوي، أبي الخير بن عبدالرحمن، المتوفى سنة (٨٣١هـ/ ١٤٣٢م)، و"الواضح في رمي النشاب"، للطبري، المتوفى سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م)، وكتاب "مختصر السعي المحمود في ترتيب الجنود"، للسقا، المتوفى سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م)، "ومناهج السرور والرشاد في الرمي والسباق"، لمؤلفه الفاكهي، وكتاب "نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال

الفروسية"، تأليف محمد بن عيسى، و"الكمال في الفروسية وأنواع السلاح"، لمؤلف مجهول، وكتاب "الفروسية"، لمؤلفه بكتوت الرماح، المتوفى سنة (٧١٦هـ/ ١٣١٦م)، وإن وصل إلى سمعي ولم تره عيني أنه قد حُقق من قبل الدكتور محمد خريسات، ويتولى مركز زايد في الإمارات نشره، وهناك كتاب "السماح في أخبار الرماح"، للسيوطي، وكتابا "غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب"، و"بغية الرامي"، للبكلمشي، و"كشف الكروب"، لليوسفي. ويبدو أن مثل هذه المؤلفات قد حققت ونشرت، مثل "خزانة السلاح"، لمؤلف مجهول، وكتاب "الفيح القسي في الفتح القدسي"، - كما رجحه بعنوانه هذا صلاح الدين المنجد في معجمه - لمؤلفه العماد الأصفهاني، و"تاريخ الحروب الصليبية"، لمؤلفه المؤرخ الصليبي وليم الصوري (Williamus archiepiscopus Tyrensis) (٥٨١هـ/ ت١١٨٥م)، وكتاب "الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر"، لمؤلفه ابن منكلي السالف الذكر، وكذلك "تبصرة أرباب الألباب للنجاة من الحروب"، للطرسوسي، و"تاريخ الحروب المقدسة"، لرجل الدين المؤرخ النصراني الصليبي مكسيموس مونروند (Monrond Maximois)، وكتاب "الفتوة"، تأليف ابن العماد الحنبلي، المتوفى سنة (١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، و"مختصر سياسة الحروب"، للهرثمي، وغيرها من المؤلفات الجادة التي تستحق من الباحثين العسكريين خاصة كل عناية واهتمام.

ومن هنا بنى كثير من الدارسين المحدثين أبحاثهم ودراساتهم على مثل هذه النظرة السائدة، فظهرت دراسات

تاريخية عسكرية خاصة، مثل "التنظيم الحربي عند العرب المسلمين"، لمؤلفه أحمد بدر، و"كتاب تنظيمات الجيش العربي الإسلامي"، تأليف خالد الجنابي، و"الجيش الأيوبي"، لمؤلفه محسن حسين، وكتاب "بعض الأسس النظرية للصناعات الحربية"، تأليف آزاد علي، و"السيف في الإسلام"، تأليف عبدالرحمن زكي، و"التاريخ الحربي"، لمؤلفته نظيرة سعداوي، وكتاب "صلاح الدين البطل الأنقى"، لمؤلفه المستشرق ألبير شاندور (Shandur Alpeer)، ومقال "خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك"، لمؤلفه نبيل محمد عبدالعزيز، وكتاب الجهاد والنظم العسكرية تأليف أحمد شلبي، و"الأخبار السنية في الحروب الصليبية"، للحريري، وغيرها من الدراسات الكثيرة التي تناولت الحرب وأدواتها. ولمثل تلك المصادر المخطوطة في الإدارة العسكرية والعمليات القتالية ووصف آلة الحرب حديث تحليلي، وسنأخذ مؤلف "التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعات الحربية"، (مخطوط)، الذي ألفه محمد بن منكلي العلمي للسلطان المملوكي قايتباي، وهذا وغيره يعد نموذجًا في ثنايا هذه الدراسة لمثل تلك المؤلفات(٢).

---

(٢) ابن منكلي، محمد العلمي (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٦م). التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعات الحربية، مخطوط محفوظ في المجمع العلمي العراقي برقم ٦٤٦ "سلاح"، وكذلك نسخة منه في مكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٣٣٧. حقق في جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م، رسالة للدكتوراة من قبل الباحث عبدالعزيز عبدالدايم، ولكنه لم ينشر بعد.

إدارة الجيش:

عاش السلطان الأيوبي صلاح الدين حياة عسكرية فبنى وحصَّن، وسعى لبناء مؤسسة عسكرية دائمة بعناصر الجيش الثابت المسجلين في الديوان إلى جانب جند الممالك الأخرى الذين يستعان بهم عند الحاجة(٣)، ويذكر أن الجيوش الأيوبية كانت تنطلق من مدينة دمشق وتعود إليها، فمن دمشق توجهت القوات للإغارة على الكرك وطبريا وحطين، وهذا ما يدعونا للقول باهتمامهم بالجيش وإعداده وتدريبه في منطقة الجابية قرب دمشق(٤)، وأقيمت للجيش بها دور

---

(٣) الكيلاني، ماجد عرسان. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، دمشق، ط٢، (١٩٩٣م) ، ص٢٦٨.

(٤) الكرك: مملكة أيوبية تمتد حتى عقبة صوان جنوبًا وبلاد البلقاء شرقًا وبحيرة لوط شمالاً وتيه بني إسرائيل غربًا، ويتبعها مناطق كثيرة، منها: اللجون وأدر والبلقاء وعمان غيرها، وطبريا من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وحول بحيرتها كثير من القرى المتصلة، والجابية من أعمال دمشق من ناحية الجولان، وحطين قرب طبريا على السفح الغربي لجبل طبريا. ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت ٧٢٦هـ/ ١٢٢٨م). معجم البلدان، ٥ ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٧٩م)، ج٤، ص٢٠، ج٢، ص ٩٢؛ وابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٩٨٨م)، ص٢٦٢، ٢٣٧؛ وابن شداد، بهاء الدين أبوالمحاسن يوسف بن رافع (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، (١٩٦٤م)، ص١٥٣.

خزن السلاح (السلاح خاناة)؛ لتحفظ بها إلى حين الحاجة(٥).

قاد صلاح الدين جيوشه بنفسه، وكان القائد العسكري العام، ولقب بألقاب الحرب(٦)، وقد توافرت المؤهلات القيادية في صلاح الدين قبل توليه السلطنة، فيذكر أنه شارك عمه أسد الدين شيركوه بحصار دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وهو في

---

(٥) ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١م). زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ ج، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، ج٢، دمشق (١٩٥٤م)، وج٣، (١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م)، ج٢، ص ٣٠١؛ وابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات دار إحياء التراث القديم، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، (١٩٥٣م)، ج٢، تحقيق الشيال نفسه، المطبعة الأميرية، القاهرة (١٩٥٧م)، ج٣، تحقيق الشيال نفسه، نشر دار القلم، القاهرة (١٩٦٠م)، ج٤، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة سيد عبدالفتاح عاشور، جامعة القاهرة، (١٩٧٠م)، ج٥، تحقيق الشيال نفسه، مركز تحقيق التراث، القاهرة (١٩٧٥م) ج١، ص٣٢٣؛ وحسين، محسن محمد (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م). الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين تركيبه تنظيمه أسلحته بحريته وأبرز المعارك التي خاضها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ص١١٧- ١١٩؛ والمومني، سعد محمد. القلاع الإسلامية في الأردن، الفترة الأيوبية والمملوكية، دراسة تاريخية أثرية استراتيجية، دار البشير، عمان (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص١٠٢- ١٠٣.

(٦) الأصفهاني، عمادالدين أبوعبدالله محمد بن صفي الدين (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١م). الفيح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، ص٣٠٣؛ والباشا، حسن. الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، الإسكندرية، (١٩٧٨م)، ص٣٥٠؛ Gibb,Sir Hamillton. The life of Saladin, from the works of Imad Ad-Din and Baha Ad-Din, Oxford(1973). P59.

الرابعة عشرة من عمره؛ فلذلك أقطعه نور الدين محمود بن زنكي إقطاعًا، وربما جعلت له قوة صغيرة من المماليك عرفت باسمه فيما بعد ومارس من خلالها فن القيادة العسكرية مبكرًا(٧).

شارك أمراء البيت الأيوبي في الحملات العسكرية، كل ملك على جنده، وخاضوا غمار المعارك، وهذا ما يدعونا للقول بأن لكل مملكة قواتها الخاصة بها، ويذكر أن عدد ملوك بني أيوب في معاركهم كان أربعة عشر ملكًا، وطالما شارك في المعارك أيضًا أبرز رجال الدولة الأيوبية، وخاصة المماليك منهم، حيث أصبحوا رافدًا للإدارة العسكرية، وخاصة في ظل الحاجة الماسة إلى زيادة عدد أفراد الجيش، إذ كانت هذه الفئات أكثر ولاء من أبناء الممالك الشامية للسلطان الأيوبي، فأبناء الشام يرون بأنفسهم الأحقية لحكم بلادهم وانتزاعها من الأسرة الأيوبية المغتصبة لهذا الحق في نظر بعضهم، ومن هؤلاء المماليك الأمير الإسفهسلار(٨) حسام الدين لاجين أبو الهيجاء السمين مقدم العساكر

---

(٧) الحياري، مصطفى علي. صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ص٢٥، ٣٠، ٤٠؛ وجب، هاملتون (Hamilton Gibb). صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (١٩٧٣م)، ص ١٥١؛

Ehrenkteutz.Anrew.S.Saladin State University of New York press Albany(1972). p. 32-33.

(٨) الإسفهسلار: هو مقدم العسكر. انظر: القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ج، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ج٦، ص٦.

الأيوبية في أحداث سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وصارم الدين قايماز النجمي، الذي تولى عسكر دمشق سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وحسام الدين بشارة، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين الياروقي (ت٦١١هـ/ ١٢١٤م) مقدم عساكر حلب، وغيرهم من أمراء الجيش النظامي الثابت، وكان لقادة الجند من أصحاب الأقاليم والإمارات المستقلة، مثل: صاحب الموصل وصاحب سنجار والجزيرة، دور قيادي مهم في تنظيم المعارك، وكان لمماليك صلاح الدين وأمراء القبائل من آل فضل من طي وآل عمار وغيرهم على اختلاف مكانتهم الواجبات التي يتولون القيام بها أثناء سير المعارك(٩)، ومن هؤلاء جميعًا كان يتكون مجلس حرب صلاح الدين(١٠).

---

(٩) أربعة عشر ملكًا أطلقت تجاوزًا على أبناء الأسرة الأيوبية أو غيرها ومنهم: الملك العادل، والملك الظاهر، والملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، والملك الصالح صاحب آمد، وصاحب سنجار، والملك الأوحد صاحب أخلاط. ويذكر أبو شامة أن الملوك في عصر صلاح الدين أولاده الأفضل والظاهر وأخوه العادل وحسام الدين لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وحسام الدين بشارة وبدر الدين دلدرم الياروقي، فهؤلاء هم عظماء دولته وكبراء مملكته، ومنهم ابن صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وعز الدين جورديك النوري وتقي الدين وابن المشطوب سيف الدين. أبوشامة، شهاب الدين أبومحمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م). الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ج، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج١، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، (١٩٥٦-١٩٦٢م)، ج٢، ص١٧٩؛ وابن النظيف الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف (ت نحو ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبوالعبد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، (١٩٨١م)، ص٥٧-٥٨.

(١٠) سيشار بعد قليل إلى مجلس الحرب.

وقاد صلاح الدين المعارك بالمرابطة والمثابرة وازدياد ثقته بنفسه وبعساكره، فيقول ابن شداد: "وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط..". وثابر صلاح الدين على متابعة سير المعارك بنفسه حتى وصف بأنه" كالوالدة الثكلى بين جنده"(١١)، وكانت استراتيجيته على حد قول ابن منكلي: "يعبئ العسكر بنفسه، ويتخلل الصفوف، ويخص كل شخص بوصية وكلام طيب، ومن جملة ما كان يقول: قاتلوا لأجل الله ولنصرة دين الله، لا لأجلي، ولا لأجل الدنيا"(١٢).

يتخذ القائد خيمة "خركاة" خاصة به وسط عساكره، وتنظم هذه الخيمة وفقًا لما تتطلبه طبيعة العمليات الحربية، أو قد يجد القائد العام في خيمة أحد أمرائه المكان الأفضل لعرض خططه العسكرية(١٣)، ويتولى القائد توزيع عساكره

---

(١١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٣٠.

(١٢) ابن منكلي، التدبيرات السلطانية، ورقة ٢٧ب.

(١٣) الخركاة: هي كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، وتغشى بالجوخ، وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي العسكر من البرد، القاضي الفاضل، عبدالرحيم بن علي بن محمد بن الحسن البيساني(ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). رسائل فاضلية، مخطوط مودع في المتحف البريطاني، لندن تحت رقم (SCH 5508)، مصور عن نسخة المكتبة البريطانية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المخطوطات قد صورت وفي حوزة الباحث نسخة منها، ورقة ٧٢أ؛ والأصفهاني. الفيح القسي، ص٦٥٦؛ وأبوشامة. الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٥٨؛ وابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٢٩م). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٦٥م)، ص٦٥٢؛ وابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م). تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان =

على مواقعهم، ويحدد لكل فرقة مهامها على حسب موقعها وقوتها، ويجعل لكل فرقة أميرها، وهذا الترتيب يسبق بدء المعركة، تدريبًا على القيام بمهامها فيقول لهم: "إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا ومواضع أطلابنا..."(١٤). وهذا هو دور القيادة العامة، وخاصة في حالة الحرب، وكانت لهذه القيادة أعلامها المرفوعة، وكوساتها(١٥) المعروفة التي تعطي دليلاً على استمرارية القيادة، وعدم التفكير بالهزيمة(١٦)، ولا بد من

= المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ج٥، ص٣٨٤؛

Minorsky.V." Pre-History of Saladin"in Studces in Caucasian history Taylor s Foreign Press ,London(1953). p.p139-140.

والقلقشندي. صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٨؛ والبقلي. التعريف، ص١١٧.

(١٤) القاضي الفاضل. رسائل، خط رقم ٥٥٠٨، ورقة٦٤ب؛ والأصفهاني. الفيح القسي، ص٦٩، ٧٠؛ وإبراهيم، محمود (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م). حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، دار البشير، عمان، ط١، ص٢٤ - ٢٥.

(١٥) الكوسات: هي صنوجات من نحاس يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. انظر: القلقشندي. صبح الأعشى، ج٤، ص٨.

(١٦) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م). تاريخ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك "الكامل"، عني بتحرير نصه ونشره حسن محمد الشماع، جامعة البصرة، م٤، ج١(١٩٦٧م)، م٤، ج٢، (١٩٦٩م)، م٥، ج١(١٣٩٠هـ/ ١٩٨٠م)، م٤، ج٢، ص٣٢؛ والهروي، علي بن أبي بكر(ت٦١١هـ/ ١٢١٤م). التذكرة الهروية في الحيل الحربية وتليها الخطب الهروية، تحقيق مطيع المرابط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (١٩٧٢م)، ص٩٨؛ وحسين، الجيش الأيوبي، ص١٤٣وما بعدها.

العودة للقائد العسكري العام في اتخاذ القرار النهائي الخاص بنتائج المعركة، فينتظر من صلاح الدين أوامره ونواهيه لحساسية مثل هذه المواقف ودقتها. أما التنظيمات الأساسية في الجيش الأيوبي التي أدت دورًا مهمًا في حالة السلم والحرب معًا، فهي:

الحلقة السلطانية وفئات الجيش:

خصَّ الأيوبيون أنفسهم بفئات مملوكية(١٧) ارتبطت بإقطاعاتهم، ومن هؤلاء المماليك تكونت الحلقة السلطانية، التي ترافق السلطان في حروبه، فتوجه صلاح الدين بسبعمئة فارس من المماليك الأتراك إلى بلاد الشام سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م(١٨)، وعرف هؤلاء بالصلاحية أو الناصرية

---

(١٧) المملوك: لفظ أطلق على من يباع ويشترى من الرقيق، وخاصة الفئة البيضاء منهم، حيث يشترون من أسواق النخاسة، ويعملون في القصور، وتتكون منهم الفرق الخاصة بالملوك الأيوبيين، ومنهم المماليك الأتراك المجلوبون من سمرقند والقبجاق من أراضي آسيا الوسطى ومناطق القوقاز، وتكونت منهم الفرق العسكرية مثل الأسدية والنورية والصلاحية. الصوري، وليم (Willliam of Tyre) (ت١١٨٥م/ ٥٨١هـ). الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ٢ج، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، (١٩٩٠م)، ج١، ص١٥٢، ج٢، ص١٠٠٢؛ الأصفهاني. الفيح القسي، ص٣٢٥؛ وابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). الكامل في التاريخ، ١٢ج، تحقيق أبي الفداء عبدالرحمن القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٨٧)، ج١٠، ص١٣؛ ومجيرالدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العمري العليمي الحنبلي (ت٩٢٧هـ/ ١٥٢١م). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، مكتبة المحتسب، عمان، (١٩٧٣م)، ج١، ص٣١٩.

(١٨) سعداوي، نظير حسان. جيش مصر في أيام صلاح الدين، ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، (١٩٥٩م)، ص٥٨.

فيما بعد(١٩)، ثم ضم إليهم المماليك الأسدية - نسبة إلى عمه أسد الدين شيركوه - وكان عددهم خمسمئة رجل(٢٠)، ومنهم تكونت نواة الجيش الأيوبي، وظهر منهم أبرز قادته(٢١)، ففتحت بهم برزية، القلعة الحصينة المنيعة على المنحدر الشرقي لجبال اللاذقية، وبعض المواقع الأخرى(٢٢)، ويبدو أن هؤلاء المماليك الأتراك - الأسدية والصلاحية والأفضلية - هم الجيش الثابت في المؤسسة العسكرية الأيوبية، وكانت أسماؤهم مسجلة في الديوان، ولم يكن عددهم كافيًا لمواجهة الأخطار التي تتعرض لها الدولة الأيوبية، فاستعان السلطان بجند الأقاليم والممالك الأخرى، وإن كان هؤلاء يعودون إلى إقطاعاتهم عند انتهاء الحرب(٢٣)، ومن هؤلاء المماليك قادة

---

(١٩) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص١٢٦؛ وابن الفرات. تاريخ، م٤، ج٢، ص١٠؛

Minorsky. Saladin. P141

(٢٠) ابن الأثير. الكامل، ج١٠، ص١٣؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص٣٩ - ٤٠؛ وأبو شامة. الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٣٨؛ والحياري. صلاح الدين، ص١٢٤- ١٢٥.

(٢١) حسين. الجيش الأيوبي، ص١٤٨- ١٤٩؛

Holt, PH. The Age of the Grusades, the near East from the eleventh century to 1517, London and New York,(1984) P61,75.

(٢٢) ابن الأثير. الكامل، ج١٢، ص١٥؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٧٥، ١٧٨.

(٢٣) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٢ج، حققه ووضع حواشيه سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتب، (١٩٧٢م)، ج١، ق٢، ص١٢٢؛ ولكل مملكة قوتها العسكرية الخاصة بها. انظر لاحقًا.

الجيش وأمراؤه إلى جانب بعض الأمراء والمقدمين من أبناء الأسرة الكردية عامة، والأيوبية خاصة، فالمملوك يشترى، ويسلم للطواشي؛ ليتولى هذا تربيته وتدريبه تدريبًا عسكريًا، بالاشتراك مع أتابك العسكر(٢٤).

ويكون موقع هذا الأمير في مقدمة عسكره وفرقته لمعرفته بمكائد المعارك والحروب(٢٥)، حتى يكون نموذجًا مرشدًا للعساكر أثناء العمليات الحربية(٢٦)، ويذكر ابن خلدون والعليمي أن الأيوبيين قد ولوا أقاربهم ومقربيهم ومماليكهم قيادة فرقهم العسكرية، وخاصة إذا لم يشارك السلطان في

---

(٢٤) الطواشي: مسؤول كبير في الجيش يتولى تربية العسكر وتدريبهم وله مهمة نقل الأوامر في ساحة المعركة، وسمِّي بالطواشي لأنه ممسوح ذهبت أنثياه وذكره. انظر: المقريزي. كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٢ ج، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت)، ج٢، ص ٢١٣ - ٢١٤؛ والسبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي (ت٧٧١هـ/ ١٣٧٢م). معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، وأبي زيد شلبي، ومحمد أبو العيون، طبع دار الكتاب العربي، مصر، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، ص٣٩.

(٢٥) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢٢٣؛ والمقريزي. الخطط، ج٢، ص٣٥٥؛ والحياري. صلاح الدين، ص٢٠٧.

(٢٦) الأصفهاني. الفيح القسي، ص٦١، ٦٢؛ والطرطوسي، مرضي بن علي بن مرضي (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م). تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كلود كاهن، بيروت (د. ن)، (١٩٤٨م) ص٢٤؛ وسبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط١، (١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م) / (١٩٥٢م)، ج٨، ق٢، ص٧٨٣.

هذه الحروب؛ لمرض ألم به، أو لانشغاله بأمور إدارية أخرى(٢٧)، ومن ضمن التنظيمات الخاصة بالقيادة العسكرية، الطواشي، الذي يتولى قيادة الفرق العسكرية، "وهو عبارة عن مسؤول كبير لنقل الأوامر وتعيين مواقع القادة في ساحة المعركة، وسمي بذلك لأنه ممسوح ذهبت أنثياه وذكره"(٢٨)، وإن كانت هذه الدلالة غير واضحة في العصر الأيوبي، فالطواشي كانت له مهمة تربية العساكر"المماليك" وتدريبهم على العمل العسكري، وقد أدى الطواشي دورًا رئيسًا في الأحداث الجارية، ويذكر منهم شمس الدين صواب العادلي، مقدم الجيوش العادلية، الذي خصص له من الخدم مئة مملوك(٢٩)، ثم الطواشي مرشد بشير، وهو من قادة المنصور محمد بن تقي الدين - صاحب حماة - (٣٠)، والطواشي عين

---

(٢٧) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٩٦٨م)، ج١، ص٢٩٨؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص٢٢٢؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٢٧.

(٢٨) ابن خلدون. تاريخ، ج٥، ص٤٠٥؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٥٥؛ ونوري، دريد عبدالقادر. سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة ٥٧٠ - ٥٨٩هـ/ ١١٧٤ - ١١٩٣م، مطبعة الإرشاد، بغداد، ص١٦٨.

(٢٩) اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان بن عفيف الدين اليافعي اليمني (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ٤ج، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)، ج٤، ص١١٩؛ والسبكي. معيد النعم، ص٣٩.

(٣٠) اليافعي. مرآة الجنان، ج٤، ص٧٥؛ والصفدي. الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٣٣٩؛ وحسين. الجيش الأيوبي، ص١٥٣.

الدولة نائب الناصر داوود على الكرك سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م(٣١)، والطواشي بدر الدين الصوابي الذي كان له دور كبير في ولاية الملك المغيث عمر ابن الملك العادل في أعقاب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م(٣٢)، ويتبع هذه التراتيب العسكرية إمرة السلاح وموضوعها "حمل سلاح السلطان أو الأمير، ويلقب صاحبها بالسلاح دارية"(٣٣)، وقد يعرف بالسلحدار أو شاد السلاح خاناة، وهو الخبير بأنواع السلاح واستخداماته، يشرف على خزائن السلاح، ويتولّى حفظها والتوقيع على ما تحتويه خزائنه(٣٤)، ويتولّى مثل هذا العمل من هو جدير بثقة السلطان، ويعتبر من ندمائه يشاركه في حله وترحاله(٣٥)، وممن تولى

---

(٣١) ابن الوردي، زين الدين أبو حفص بن الوردي عمر بن مظفر بن عمر (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). تاريخ ابن الوردي، تتمة المختصر من أخبار البشر، ٢ج، القاهرة، جمعية المعارف، (١٨٦٨م)، ج٢، ص٢١٧؛ والمقريزي. السلوك، ج١، ق١، ص٢٠١.

(٣٢) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٥، ص١٥.

(٣٣) اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م). ذيل مرآة الزمان، ٢ج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م)، ج١، ص١٦٦؛ وابن العميد، المكين جرجس أبو العباس بن العميد (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م). أخبار الأيوبيين، منشور في مجلة المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق (١٩٥٥-١٩٥٧م)، ص ١٥٨.

(٣٤) القلقشندي. صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩، ج٥، ص٤٢٨؛ وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص٥٨.

(٣٥) المقريزي. الخطط، ج٢، ص٢٢٢؛ وابن طولون، محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م). نقد الطالب لشغل المناصب، =

السلاحدارية في عهد صلاح الدين، شجاع الدين طُغرل(٣٦)، ثم حسام الدين سنقر الوساقي(٣٧)، ثم سابق الدين سنقر(٣٨)، وتولاها للملك الأفضل بن صلاح الدين، شجاع الدين طغرل السلحدار - السابق الذكر(٣٩).

وتذكر المصادر أن سلاطين بني أيوب قد اتخذوا مجلسًا للشورى (مجلس حرب) من هؤلاء القادة وأولئك المماليك، وهذا كان تنظيمًا عسكريًا متبعًا وخاصة عند انتهاء المعارك، فيجتمع بهم السلطان لينظر في أمر الأسرى خاصة، ونتائج المعركة عامة(٤٠)، أو يعقد هذا المجلس أثناء سير المعارك لمراقبة أحداثها وإعادة النظر في خططها العسكرية، فيستمع لذوي الخبرة والرأي، ويتباحثون ويتشاورون في الأمور

= تحقيق محمد أحمد دهمان، وخالد محمد دهمان، راجعه نزار أباظة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ص٦٣؛ ونبيل محمد عبدالعزيز (١٩٧٦م). خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، م٢٣، ص١٠٧ - ١٥٤، ص١١٤؛ ودوزي، رينهارت (Reinhart Pieter Anne Dozy). تكملة المعاجم العربية، ١١ج، ترجمة محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة، دار الرشيد للنشر، العراق، ج١، (١٩٧٨م)، ج٢، (١٩٨٠م)، ج٣، (١٩٨١م)، ج٤، (١٩٨١م)، ج٥، (١٩٨٢م)، ج٦، (١٩٩٠م)، ج٧، (١٩٩٢م)، ج٦، ص١١٧.

(٣٦) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٩٥؛ والصفدي. الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٨٤.

(٣٧) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٩٥؛ وابن خلكان. وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٥٣؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص٩١.

(٣٨) المقريزي. الخطط، ج٢، ص٢٦٣.

(٣٩) نفسه، ص٤٨٠.

(٤٠) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص٩٢.

العسكرية والحربية التي تخص تنظيمات الجيش في ساحة المعركة(٤١)، فيروى هذا في حصار عكا: "وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة..."، وهكذا في حصار صور وغيرها(٤٢)، وفي تقليد ديوان الخلافة العباسية للسلطان العادل أبي بكر بن أيوب يدعوه إلى: "أن يأخذ برأي ذي التجارب منهم والحنكة، ويجتني بمشاورتهم في الأمر ثمر الشركة، إن في ذلك أمن من خطأ الانفراد وتزحزح عن مقام الزيغ والاستبداد"(٤٣).

---

(٤١) المنهاجي السيوطي، أبو عبدالله محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي بن عبدالخالق (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م). إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ٢ق، تحقيق د. أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٢م)، ق١، ص٢٥٧؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٢٨؛ ونوري. سياسة صلاح الدين، ص ٣٠٨؛ وسعداوي. جيش صلاح الدين، ص٣٢ - ٤٠.

(٤٢) الشيزري، عبدالرحمن بن عبدالله بن نصر بن عبدالرحمن (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م). المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق ودراسة علي عبدالله الموسى، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، ط١، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص٦١١؛ والدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت ق ٨هـ/ ١٤م). كنز الدرر وجامع الغرر، ٧ج، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، نشر المعهد الألماني للآثار، القاهرة (١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م)، ج٧، ص٥٣، ١٠٢؛ وحسين. الجيش الأيوبي، ص١٩٧؛

Regan'Geoffrey. Saladin and the fall of Jerusalem. London, NewYork. Sedney (1978) .P146-147.

(٤٣) الصوري. تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٤٤؛ والأصفهاني. الفيح القسي، ص٣٢٤؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص١١٤؛ والحريري، سيد علي (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م). الأخبار السنية في الحروب الصليبية، المطبعة العمومية، مصر، ط١، ص١٤٦، ١٥٣؛ ورنسيمان، ستيفن (Steven Runciman). تاريخ الحروب الصليبية، =

ويبدو أن السلاطين الأيوبيين قد اهتموا بشراء هذه الفئة من المماليك، فازداد عدد أفراد الحلقة السلطانية، ومن ثم ازداد عدد الجيش الأيوبي(٤٤)، فحملة تورانشاه إلى اليمن سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م قد بلغ تعدادها ألف فارس فقط(٤٥)، ويذكر أن جيش صلاح الدين لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف فارس في أحداث سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م عندما قصد بلاد الشام لضمها لسلطته(٤٦)، حتى اشترى اثني عشر ألفًا من المماليك الأتراك، ووزع عليهم الإقطاعات، وكون منهم نواة جيشه(٤٧)،

= ٣ج، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ج١، (١٩٦٧م)، ج٢، (١٩٦٨م)، ج٣، (١٩٩٣م)، ج٢، ص٧٦٤؛

the Encyclopaedia of Islam New Edition(1971), London: Atabak, Ayla, Ayyubids, Hisba V.1.P 799.

(٤٤) القلقشندي. صبح الأعشى، ج١٠، ص١٠٦.

(٤٥) أبو شامة. الروضتين، ج١، ص٢١٧.

(٤٦) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م). نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ج، تحقيق د. محمد محمد أمين، د. محمد حلمي محمد أحمد، مركز تحقيق التراث، القاهرة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٤م)، ج٢٩، ص٢٣٥؛ وابن أبي الهيجاء. تاريخ ابن أبي الهيجا، مخطوط محفوظ في الدار التونسية تحت رقم ١٣٥٣ ومصور لدى مكتبة جامعة اليرموك، إربد، تحت رقم ١٧٦؛ أحداث سنة ٥٧١هـ؛ وأبو دمعة، أمين. الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، بإشراف د. أمينة بيطار، دمشق، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٩١، ٩٥.

(٤٧) أبو شامة. عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ ق، منشورات وزارة الثقافة وإحياء التراث العربي، دمشق، (١٩٩١/ ١٩٩٢م)، ق١، ص٤٩؛ والمقريزي. الخطط، ج١، ص٩٤؛ وابن الفرات. تاريخ، م, ٤ ج١، ص٢٧؛ وآشتور، أي (E. Ashtor) (١٩٨٥م). التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عبلة، مراجعة أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ص٣٠١؛ والحياري. صلاح الدين، ص١٣٦.

فبلغ في أحداث سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م مئة وثمانية وستين طلبًا(٤٨)، ويقول وليم الصوري في أعداد القوات الأيوبية وأوصافها في إحدى المعارك التي عاصرها: "فقد أجريت تحقيقًا دقيقًا حول أعداد العدو، واكتشفت من روايات العديد من الناس الثقات: أن ستة وعشرين ألف فارس مسلحين تسليحًا خفيفًا بالإضافة إلى آخرين ممتطين صهوات الجمال وحيوانات التحميل كانوا قد دخلوا منطقتنا، ثمانية آلاف ينتمون إلى الجنود الرائعين، والثمانية عشر ألفًا الآخرون هم الفرسان العاديون المعروفون باسم قرا غلام - العبيد السود - وعمل ألف من أشجع الفرسان كحرس لصلاح الدين، وكان جميع هؤلاء يرتدون حريرًا أصفر فوق دروعهم، وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه"(٤٩)، ويبدو أن القرا غلام السالف ذكرهم

---

(٤٨) الطلب: هي فرقة عسكرية يتفاوت عددها من ٧٠-٢٢٠ جنديًا. انظر: الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٥٢، ٩٦٣؛ والشيزري. المنهج المسلوك، ص٢٨، ٢٩؛ والأسدي، محمد بن محمد بن خليل (ت ق ٩هـ / ١٥م). التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختبار، تحقيق د. عبدالقادر أحمد طليمات، ملتزم الطبع والنشر: دار الفكر العربي، مصر، (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ص٦٧ - ٦٨؛ ومجهول (ت بعد ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م). خزانة السلاح مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، تحقيق د. نبيل محمد عبدالعزيز، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة، (١٩٧٨م)، ص٢٠٧؛ وجبران، نعمان محمود. مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول (٥٧٠-٧٨٢هـ/ ١١٧٤-١٣٨١م)، رسالة ماجستير غير منشورة بإشراف د. مصطفى الحياري، الجامعة الأردنية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص١٥٢.

(٤٩) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٠٢.

هم من الخيالة من غير المماليك(٥٠).

ومهما كانت هذه الرواية، فنجد أن الجيش الأيوبي قد ازداد حتى بلغ قبيل معركة حطين ما يقارب الاثني عشر ألفًا من الجند المركزي وجند الممالك، سوى المتطوعة وغيرها من الفئات التي شاركت هذا الجيش حروبه(٥١). أما الفئات التي يتكون منها هذا الجيش فقد تباينت تبعًا لتباين البنية السكانية للمجتمع الإسلامي آنذاك، حيث تكون هذا المجتمع من العرب من آل فضل من قبيلة طي، وآل عمار والأراتقة وغيرهم، والأكراد، ومنهم الخالدية والبختية والمحمودية، والتركمان من غز وترك(٥٢)، وهذا الاختلاف في التركيبة

---

(٥٠) أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص١٤٩؛ وجب، هاملتون (Hamilton A.R.. Gibb) (١٩٧٩م). دراسات في حضارة الإسلام، تحرير ستانفوردشو، وليم بولك، ترجمة إحسان عباس، محمد يوسف نجم، محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ص١٠٠.

(٥١) ابن الأثير. الكامل، ج١١، ص٥٣١. والحريري، أحمد بن علي بن المغربي (ت بعد ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م). الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حقق نصه وعلق عليه وقدم له سهيل زكار، دار الملاح، دمشق (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص١٨١؛ والعريني، السيد الباز. الشرق الأدنى في العصور الوسطى " الأيوبيون"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٦٧م)، ص٨١.

(٥٢) ابن منقذ، مؤيد الدين أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، والدار المتحدة للنشر، بيروت، (١٩٣٣م)، ص٩٥ - ٩٦؛ وابن العديم. زبدة الحلب، ج٣، ص١٥٨؛ وأبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م). المختصر في أخبار البشر، ٤ج، في ٢مج، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، (١٩٠٧م) ج٢، ص٢٦؛ وابن فضل الله العمري. التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب =

السكانية أدى إلى ظهور نوع من التنظيم والترتيب في سير المعارك وتنظيم العساكر الأيوبية، فالقيادة أيوبية لعساكر الدولة النظامية، وإقطاعية متباينة لجند الإقطاع الذين كانوا يشكلون الهيكل العام للمؤسسة العسكرية الأيوبية، ومن هنا اعتبرت الجيوش الأيوبية خليطًا من تلك العناصر التي خضعت لإدارتها مباشرة، أو كانت تابعة لتنظيماتها الإقطاعية، بالشكل الذي حافظ على استقرار هذه المؤسسة وتآلفها من خلال المعارك التي شاركت بها، وجعلها تحقق ما تصبو إليه من انتصارات في ظل هذا التباين بين الجند أنفسهم، وبين الجند والقادة على حد قول بعضهم(٥٣)، فيقاتل كل جنس ببسالة حفاظًا على سمعته، إذ تطلب توحيد مثل هذه العناصر استثارة الهمم من خلال الإدارة العامة التي اتصفت أحيانًا بالحلم والدهاء والسياسة لتحقيق أهدافها(٥٤).

= العلمية، بيروت، ط١ (١٩٨٨م)، ص١٤٥. وكرد علي، محمد. خطط الشام، ٦ ج في ٣مج، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ج٤، ص٢٦٧.

(٥٣) نظام الملك الطوسي، الوزير الحسن بن علي بن إسحاق دهقان (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م). سياسة نامة، سير الملوك، ترجمة يوسف حسين بكار، بيروت، (د.ت)، ص١٢٦؛ وشاندور، ألبير (Alpeer Shandor) (١٩٩٣م). صلاح الدين الأيوبي، البطل الأنقى في الإسلام، ترجمه عن الفرنسية سعيد أبو الحسن، مراجعة وتحقيق نديم مرعشلي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط٢، ص٣٠٥؛ غوانمة، يوسف. الأردن في استراتيجية صلاح الدين، مجلة أفكار، ع٤٢، (١٩٧٨م)، ص٨٢ – ٨٨، ص٨٥ (استخدم مصطلح "العسكر" ليدل على الجيش الأيوبي النظامي، "والجند" ليدل على جيش الأقاليم والجيش الاحتياطي). انظر: سعداوي. جيش صلاح الدين، ص٧.

(54) Regan.Saladin , P 96 .

تخلص الأيوبيون من العناصر الساخطة في جيش من سبقهم من البوريين والزنكيين، وهؤلاء ربما كانوا "من صقالبة ومصامدة وأرمن وعرب والعبيد الزنج"(٥٥)، حيث كانت المصلحة الشخصية هي الدافع الرئيس لهم، واعتمد الأيوبيون في قيادة جيشهم على أبناء جنسهم من الأكراد، فأوكلت لهم قيادات عسكرية على حالتهم القبلية، إذ كان تنظيمهم القبلي هذا مدعاة للحفاظ على نقائهم وتآلفهم في آن واحد(٥٦)، بالإضافة إلى مماليكهم الأسدية والصلاحية والأفضلية، وغيرهم من القبائل التركمانية، الذين أصبح لهم رأي نافذ في سياسة الدولة، وخاصة العسكرية منها(٥٧)، فتكون من هؤلاء الجيش النظامي الأيوبي حتى بلغ عدده اثني عشر ألفًا مع إضافات مختلفة من المتطوعة عند الحاجة(٥٨)،

---

(٥٥) ابن إياس الحنفي، محمد بن أحمد (ت٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م). بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، نشر دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ألمانيا، ط١، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، طبع دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة (د.ت)، ج١، ق١، ص٢٤٢؛ ولامب، هارولد (Lamb .H). شعلة الإسلام، قصة الحروب الصليبية، ترجمة محمود عبدالله يعقوب، مراجعة جمال الدين الشيال، نشر مكتبة المثنى، بغداد، (١٩٦٧م)، ص٢٨٤.

(٥٦) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٤٧؛ وسبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٢٠؛ وابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٥٣ب؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٦٩؛ وسعيد عاشور. البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، م١٠، ع٣٧، (١٩٩٠م)، ص١٨-٣١؛

Minorsky.Saladin.P139,142.

(٥٧) ابن خلدون. تاريخ، ج٥، ص٣٩٩.

(٥٨) المقريزي. السلوك، ج١، ق١، ص١٢٦؛ والحياري. صلاح الدين، ص١٨١؛ وآشتور. التاريخ الاقتصادي، ص٣٠٠؛ والمعاضيدي، خاشع =

إذ حرص الأيوبيون على إشراك عناصر سكانية من القبائل العربية المحيطة بهم(٥٩)، وإن استبعد بعضهم مثل هذا الدور(٦٠)، والأرجح أن العناصر السكانية قد كان لها دور في تشكيلة الجيش الأيوبي، وإن كان هذا الاشتراك على نطاق محدود، فترد الإشارة - دون ذكر لأسمائهم - إلى ثلاثة عشر أميرًا وقائدًا عسكريًا، اثنين من مواطني دمشق الأصليين وباقيهم من مصر وسوريا الشمالية والجزيرة الفراتية "المشارقة"(٦١)، واستعان الأيوبيون بالنصارى والتركبلي(٦٢)،

= وآخرون. تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص١٤٠، ١٤٢.

(٥٩) ابن القلانسي، أبو بكر حمزة (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). تاريخ أبي يعلى المعروف بذيل تاريخ دمشق، طبع مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (١٩٠٨م)، ص٣٤١؛ والدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص١٥٤. والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٥٨. والحياري. الإمارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب، عمان، الأردن، ط١، (١٩٧٧م)، ص٥٦؛ وجبرائيل سعادة. تاريخ قلعة صلاح الدين، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، م١٧، ط١، ٢ (١٩٦٧م)، ص٥١-٥٩، ص٦٦؛ والعريني. الأيوبيون، ص١٦٤-١٦٦.

(٦٠) غوانمة، يوسف حسن درويش. معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج وخطاب جديد في العجز الإسلامي والعربي والمشروع النهضوي العربي الوحدوي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص٩٩؛ وسعيد عاشور. البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص١٨.

(٦١) للمزيد انظر: سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٤١، والجدول في:

Humphreys,R Stephen. Islamic History A framework for Induring London NewYork (1991). P.257.

(٦٢) التركبلي: من أب عربي وأم يونانية. انظر: ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٥.

لخبرتهم بالمناطق ومسالكها وعوراتها، وتدبرهم بالخطط العسكرية، وإن اعتبروا رديفًا للجيش النظامي لا أحد طُلبه الرئيسة(٦٣)، وهكذا بحث الأيوبيون عن مجندين جدد لتغطية الحاجات العسكرية التي عاشتها دولتهم(٦٤)، فاستخدموا المغاربة في جيوشهم(٦٥)، ومارست مثل هذه الفئات التدريب العسكري في "الوطاقات"، أي المعسكرات التي كان يقيم بها الجند، كالجابية السابق ذكرها، وإذا ما احتاج السلطان إلى تبليغهم أمرًا ما جاء إلى وطاقاتهم وثكناتهم هذه لإصدار تعليماته إليهم(٦٦).

أما جند الأقاليم فقد اختلفت مهماتهم(٦٧)، فبعض أهل حلب من المهنية قد تخصصوا بنقب الأسوار، فجعلهم صلاح

---

(٦٣) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٥٤؛ وسبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٤٠٤؛ والبنداري، الفتح بن علي الأصفهاني (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م). سنا البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) - (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، تحقيق فتحية النبراوي، نشر مكتبة الخانجي، مصر، (١٩٧٩م)، ج١، ص١٦٣؛ وسبانو، أحمد غسان. مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، (١٩٨٤م)، ص١٥٢.

(٦٤) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٤٨؛ وشوفيل، جنفياف (Genvyav Shoveel). صلاح الدين بطل الإسلام، ترجمة جورج أبو صالح، دار الأميرة، بيروت، (١٩٩١م)، ص ٣٧٦.

(٦٥) عبدالهادي التازي. بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية الغربية، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان (١٣٩٤هـ/ ٢٠-٢٥ نيسان ١٩٧٤م)، ص٤٣٤.

(٦٦) أبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص٢٧٢؛ وسعيد عاشور. البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص١٦.

(٦٧) القاضي الفاضل. رسائل. خط رقم ٥٥٠٩. ورقة ٦٢ أ؛ وعبدالهادي التازي. بلاد الشام، ص٤٣٤.

الدين على عملهم هذا عند فتحه حصن بيت الأحزان في السفح الجنوبي لجبل الشيخ سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، ووفر لهم الحماية اللازمة لإنجاز مهمتهم(٦٨)، وهكذا لأهل باقي أقاليم الدولة الأيوبية في دمشق وحمص وحماة والموصل والجزيرة، حيث تتعاون هذه الجيوش إذا ما تعرضت لخطر ما، أو قد يقوم كل منها بمهمة توكل إليه تحت إمرة قيادته القبلية أو الإقطاعية(٦٩)، وربما جاءت سلبيات هذا التنظيم القتالي بالاضطراب أحيانًا، والانسحاب في اللحظات الحاسمة في أحيان أخرى(٧٠)، أو قد يتعرض إقطاع هذه القوات لخطر ما في الوقت الذي تكون فيه هذه القوات على جبهة بعيدة عن حدود إقطاعها(٧١).

وبالإضافة إلى هذه العناصر العسكرية في الجيش الأيوبي فهناك المتطوعة، الذين كانت توكل إليهم مهام عسكرية حسب

---

(٦٨) مصطفى الحياري. حصن بيت الأحزان، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م١٣، ع٤، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٥٦.

(٦٩) الأصفهاني. الفيح القسي، ص ٣٦٢؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٤، ص٩٢ - ٩٣؛ والبنداري. سنا البرق الشامي، ج١، ص١٥٥؛ والعريني. الأيوبيون، ص١٦١ - ١٦٣.

(٧٠) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢ , ص٣١١؛ والملك الأشرف الغساني، عماد الدين أبو العباس إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م). العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبدالمنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ودار البيان، بغداد، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ص ٢١٢؛ والعريني. الأيوبيون، ص١١٠.

(٧١) النويري. نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤١٥؛ وجب. دراسات في حضارة الإسلام، ص١٠٢.

الظروف السائدة، كحرق الأعشاب حول الجيش المعادي، كما كان في حطين وفي حصار صور(٧٢)، وهؤلاء المتطوعة غير مسجلين في الديوان، يستنهضون للقتال إذا ما كانت هناك حاجة إلى قوات إضافية، فيروى في أحداث سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م أن سبط بن الجوزي قد جلس في جامع دمشق ونادى بالتطوع لدفع الغزاة، فقام والي دمشق وأعيانها "وساروا إلى نابلس لقتال الفرنج"(٧٣)، وهذه القوات الإضافية قد تكون منفصلة عن الجيش النظامي، فتوكل إليهم أحيانًا مهمة الإغارة على الصليبيين قبل نشوب الحرب، أو مطاردتهم في حال تقهقرهم(٧٤)، وهكذا كانت واجبات بعض الفرق من التركمان والخوارزمية، وخاصة في عهد المتأخرين من ملوك بني أيوب(٧٥)، وهناك جماعات من الغلمان والأوباش واللصوص

---

(٧٢) النويري. نهاية الأرب، ص٤١٥؛ والحياري. صلاح الدين، ص٢٨٧.

(٧٣) الصوري. الحروب الصليبية، ج١، ص٥٩٥؛ ومجهول. مؤرخ صليبي (ت ق ١٢م/ ٦هـ). أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه حسن حبشي، ملتزم الطبع والنشر: دار الفكر العربي، (١٩٥٨م)، ص٥٢، ٩٩؛ وابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ ج، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د. ت)، ج٥، ص١٨؛ وسوسن نصر. القاضي الفاضل وصلاح الدين والوحدة الإسلامية، دار الزهراء للنشر، القاهرة، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ص٦٦.

(٧٤) حسين. الجيش الأيوبي، ص١٥٨.

(٧٥) الخوارزمية: سلالة تركية مسلمة سنية حكمت أجزاء كبيرة من آسيا الوسطى وغرب إيران بين سنوات ١٠٧٧- ١٢٢٠م، وأصبحوا أتباعًا للسلاجقة وورثتهم من بعدهم. ابن الأثير. الكامل، ج١٠، ص٢٤١؛ والدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٠.

الذين توكل إليهم بعض المهام في المعسكر الصليبي، وإن كانت بعض نتائج أعمالهم عكسية على المعسكر الأيوبي أحيانًا(٧٦). وكان للأطفال والنساء دور كبير في مساعدة العساكر النظامية وبث الروح المعنوية في نفوس الجند، ويكون لهؤلاء الأطفال دربة على أعمال الطعن والقتال في المستقبل(٧٧).

أما أنواع القوات المسجلة في الديوان، فكانت الطُلب - الفرق العسكرية أو أميرها الذي يقود مئتي فارس أو مئة وسبعين في ميدان القتال - ومنها ما يعرف بالطواشية - الطبقة العليا - ومنها ما يعرف بالقراغلامية - طبقة أدنى من العبيد - من العسكر الثابت، خلافًا لغيرها من الجند الإقطاعي المترحلة والمتنقلة، ولكل من هذه الطُلب أميرها وحاجبها(٧٨)، مع

---

(٧٦) الأوباش: من لا يعرف لهم موطن وولاء ويعرفون باللصوص والزعران وقطاع الطرق، وغالبًا يمثلون خطرا على أمن الناس وحياتهم". ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٥٨، ١٩٢. وابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ج، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت). ج٦، ص١١؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص ٣٦٠، ٣٧٢.

(٧٧) الأصفهاني. الفيح القسي، ص ٤٧٠؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٠٨، ١٠٩؛ وسبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٥٤٥؛ وابن أبي الهيجاء. تاريخ، أحداث سنة ٥٨٥هـ.

(٧٨) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٣٣؛ وطرخان، إبراهيم علي. النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص٣١؛ وجب. دراسات في حضارة الإسلام، ص١٠٠؛ وشوفيل. صلاح الدين، ص٣٢٥.

تفاوت أعداد هذه العساكر عامة، وأعداد كل طُلب خاصة، فيذكر في أحداث سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م أن الجيش النظامي الأيوبي قد بلغ عدده ١١١ أميرًا و٨٦٤٠ فارسًا و٦٩٧٦ طواشيًا و١٥٥٣ قراغلاميًا، بمجموع ما يقارب سبعة عشر ألف مقاتل، حتى بلغت نفقاتهم (٣,٦٧٠,٠٠٠ دينار)، ما عدا المتطوعة والعساكر غير النظامية، وتختلف أعداد الجند من مملكة لأخرى، فيروى أنه كان للملك المعظم في دمشق ما يقارب ثلاثة آلاف فارس أو أربعة، اعتمد عليهم في حروبه(٧٩).

ومن فرق الجيش الأيوبي النظامية اليزك، وهم طلائع الجيش، ومن شروطهم الحيطة والحذر، وربما يفهم اليزك لغة عدوه، لذا كان المستأمنون من الفرنج، الذين أمَّنهم المسلمون على أنفسهم قد عملوا في اليزك(٨٠) طلائع للجيش الإسلامي، ومهمتهم استكشاف الطرق التي يسلكها الجيش، وتقدير قوة العدو وعدته، وقد تقوم اليزك ببعض المناوشات

---

(٧٩) الدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٧؛ والذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الفارقي الدمشقي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م). سير أعلام النبلاء، ٢٣ج، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي الدين هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ج٢٢، ص ١٢٢؛ والسيد الباز العريني. الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي، دراسة مقارنة، حوليات كلية الآداب، جامعة القاهرة، (١٩٥٧م)، م٤، ص١١٣-١٤٨، ص١٤٤؛ وحسين. الجيش الأيوبي، ص١٠٥؛ E.1,p.798.

(٨٠) سميت اليزك بالكشافة عند الصليبيين وعند المماليك خلفاء الأيوبيين). انظر: الصوري. الحروب الصليبية، ج١، ص٤٧٥؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٤٤؛ وابن عبدالظاهر، محيي الدين (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ط١، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، =

العسكرية(٨١)، وبلغ عددهم سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ألف فارس(٨٢)، ومن قادتهم: مظفر الدين كوكبري الملقب بالذئب الأزرق، فتولى قيادة اليزك في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م(٨٣)، وتولى علم الدين سليمان بن جندر يزك الجيش الأيوبي بعد سقوط عكا سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م(٨٤)، وكان منهم صارم الدين قايماز النجمي الحراني(٨٥)، ومنهم جورديك النوري الذي تولى قيادة اليزك سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م(٨٦)، وكان للجيش الأيوبي ما يسمى بالبدل أو القوة الاحتياطية(٨٧)، الذين توكل إليهم مهمة رفع المعاناة وإراحة الجيش الأصلي(٨٨).

= ص١٣٧؛ وصلاح الدين البحيري. المخابرات الأيوبية في مواجهة الصليبيين، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، ع ٤١، ٤٢، س١٦، ص١٠٧ - ١٢٣، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص ١١٨.

(٨١) أبو شامة. الروضتين، ج١، ص١٨٩؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٢٨٥.

(٨٢) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص ١٣١.

(٨٣) عبدالجبار السامرائي. معركة حطين، دراسة تاريخية، مجلة المورد، العراق، م١٦، ع٤، ص ١٧-٣٧، (١٩٨٧م)، ص٢٠.

(٨٤) العليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٧٩.

(٨٥) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٣١؛ والنعيمي، عبدالقادر محمد النعيمي الدمشقي (ت٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م). الدارس في تاريخ المدارس، ٢ج، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٩٩٠م)، ج١، ص٤٣٩.

(٨٦) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢١٧.

(٨٧) الصوري. الحروب الصليبية، ج١، ص٥٩٥.

(٨٨) للمزيد انظر: أبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص ٢٤٢ - ٢٤٣؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٣٤٥، ٢٦٦؛ وابن الفرات. تاريخ، م٤، ج١، ص٢٤٢؛ والحياري. صلاح الدين، ص٣٩٩.

واختلفت التنظيمات العسكرية الأيوبية من خلال العناصر السالفة الذكر كل حسب قدراتها، فيذكر أن الفرسان والأفصال - الرماة وحملة الرماح - كانوا من الأكراد والأتراك(٨٩)، والمشاة كانوا من غيرهم الذين لا يمتلكون العدة من الخيل، فأوكلت لهم مهام إقامة المنشآت، وحماية المعسكرات، وترتيب بعض الكمائن العسكرية، وتزويد الجيش بالمؤن عند الحاجة(٩٠). وانتظمت القوات النظامية في الجاليش والجاووش العسكري "الجاليشية تعبئ والجاووشية تلبئ"(٩١)، وشعارهم: "يا للإسلام وعساكر الموحدين"(٩٢)، إلى

---

(٨٩) كاهن، كلود (Claud Cahen). الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سيناء للنشر، القاهرة، ط١ (١٩٩٥م)، ص٢٢١؛ وسعيد عاشور. البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص٢٤؛ وجب. صلاح الدين الأيوبي، ص١٧١-١٧٢.

(٩٠) مجهول. أعمال الفرنجة، ص ١١٦؛ وسميل، ر. سي (R.C. Smail). الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، (١٩٨٢م)، ص٧٧.

(٩١) الأصفهاني. الفيح القسي، ص٢٣٥؛ وبيبرس المنصوري، ابن عبدالله المنصوري الناصري الدوادار الخطائي (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م). التحفة الملوكية في الدولة التركية، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١ هجرية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبدالحميد صالح حمدان، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص٨٠؛ ودوزي. تكملة المعاجم، ج٢، ص١٢٦.

(٩٢) الجاليشية: لفظة تركية (Calis)، معناها خصلة من الشعر تجعل برأس الراية، وأطلق اللفظ على القلب في الجيش وهم طليعة الجيش من رماة السهام، أما الجاووشية فهم من يتولّون مهمة التكبير والتهليل والتلبية لرفع الروح المعنوية القتالية عند العساكر، وينادون للقتال. ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢٢٦، ١٤٧؛ وأبو شامة. الروضتين، ج٢، ص١٤٤؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٥؛ والمقريزي. السلوك، ج١، ق٣، ص٦٢٨؛ ودوزي. تكملة المعاجم، ج٢، ص١٢٦.

جانب مهامهم السلمية فيطوفون البلاد ويخبرون الناس بولاية جديدة أو مُلك جديد(٩٣).

وهناك فرق عسكرية تتولى الكوسات والطبول لاستدعاء العساكر عند الحاجة، تتبادل القوات الإشارة من خلالها، وخاصة مع المدن المحاصرة، فتدق الطبول ليردّوا عليها، ويتولّى أمرها (الطبلخاناة - حملة الطبول)، الذين يتبعهم بعض الفرسان(٩٤)، وصاحب الطبل هذا هو الأعلم بسر معنى نغمات كوساته - صنوجات من نحاس - وطبوله، ولا بد له من الحيطة والمحافظة على سرية عمله؛ لذا ربما يختار السلطان كوسات عساكره بنفسه(٩٥).

وللأدلاء دور رئيس في سلامة العساكر المحاربة، سواء المهاجمة منها أم المنسحبة، فإليهم يرجع الفضل في إنقاذ قوات صلاح الدين عقب هزيمته في وقعة الرملة سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، وهؤلاء يختارون من أهل المنطقة العارفين بطرقها ومسالكها(٩٦).

---

(٩٣) ابن الفرات. تاريخ، م٥، ج١، ص٢٠٨.

(٩٤) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص ١١٩، ١٦٢؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٣٢٥، ٣٥٠؛ وابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٦٢م). البداية والنهاية، دقق أوله وحققه أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ج١٢، ص ٣٦٤؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٧٣.

(٩٥) ابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ١٢٢أ.

(٩٦) أبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص ٤١؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٦١. والحياري. صلاح الدين، ص ٢١١.

ويتبع التنظيمات السالفة والتشكيلات العسكرية الرئيسة فرق هندسية من حجارين ونقابين، توكل إليهم مهمة نقب الأسوار وحفر الخنادق، وتوكل إلى غيرهم من المهنية من جند الأقاليم بعض هذه المهام(٩٧). وإن كان من ضرورات الجندية قدرتها على مداواة الجروح الناتجة عن الاقتتال(٩٨)، فلا بد من مرافقة بعض الفرق الطبية للجيش، وكان هناك مستشفيات ثابتة ومتنقلة يحمل إليها الجندي المصاب عند الحاجة، وقد يكون لبعض الأطباء اختيار الموقع المناسب لإقامة العسكر، فيذكر أن الأطباء قد أشاروا على صلاح الدين في حصار عكا بالعودة للخروبة لفساد الأجواء بكثرة القتلى حول أسوارها سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م. وهناك حملة الأعلام، الذين يرافقون الجيش في حملاته، وهي شارات تميز الفرق العسكرية بعضها عن بعض(٩٩).

ويبدو أن الأيوبيين قد اهتموا ببناء الأسطول البحري، لاستخدامه في محاصرة بعض المدن الساحلية، أو الدفاع من البحر ضد الأخطار التي تتعرض لها سواحل ممالكهم، حتى بلغت سفن هذا الأسطول ما يقارب (٣٠ - ٤٠) سفينة بحرية(١٠٠)، فأنشأ الأيوبيون ديوانًا لهذا الأسطول، حيث

---

(٩٧) الأصفهاني. الفيح القسي، ص ١٥٥، ٧٦.

(٩٨) ابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٥٤ ب وما بعدها.

(٩٩) الأصفهاني. البرق الشامي، ج٥، ص١١٧؛ وابن الأثير. الكامل، ج١٢، ص٤؛ وابن الفرات. تاريخ، م٤، ج٢، ص٢٤٦؛ وابن خلدون. تاريخ، ج٥، ص٣٨١؛ وحسين. جيش صلاح الدين، ص٤٦ - ٤٧.

(100) Regan. Saladin , P69.

اهتم به صلاح الدين ابتداء من سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧١م، ولا يعرف تحديدًا من تولى مقدمًا له في هذه السنة، إذ يقول أبو شامة: "وولى فيه أصحابه، وأفرد له إقطاعًا مخصوصًا وديوانًا مفردًا"(١٠١)، غير ما يرد في حصار صور سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، بأنه كان يتولاه شخص يقال له الفارس بدران، ويعرف بعبدالمحسن(١٠٢)، وتولاه عند حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، الحاجب لؤلؤ العادلي، المتوفى سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م(١٠٣).

تولى نظر ديوان الأسطول الملك العادل الأيوبي سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وكان صفي الدين بن شكر نائبًا له، وخصصت النفقات لهذا الأسطول لتنميته وتطويره، وجعل السلطان إقطاعًا خاصًا لصاحب الأسطول وكتب له يحث الناس على الإقبال عليه حيث كان الناس يتشاءمون من الانضمام للأسطول: "القول قول صاحب الأسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله ومما يحتاج إليه"، وهذا التشاؤم ربما يعود للخوف من البحر، وعدم معرفة كثير من الناس بأسراره، كما كانت الحالة الاقتصادية السيئة عامل إحباط، فهي بلا شك سبب رئيس للإحجام عن الانضمام للأسطول، فترد الإشارة إلى أحداث سنة ٥٧٨هـ/ ١١٩١م، بحق رجال الأسطول بأنهم: "لا يصرف لهم إلا الشيء القليل من الخبز

---

(١٠١) أبو شامة. الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠.

(١٠٢) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٨٤.

(١٠٣) نفسه، ص ١٣٨؛ والصفدي. الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٤٠٥.

ونحوه"(١٠٤)، لذا طلب الملك الصالح نجم الدين أيوب من ولده تورانشاه قائلاً: "رجال الأسطول ينبغي أن يكونوا شباعًا، إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهمًا مستمرة راتبة، جاؤوا من كل فج عميق"(١٠٥)، ويذكر أن هذا الأسطول منذ نشأته قد اشترك في حصار قلعة أيلة سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، وحصار مدينة صور سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ومقاومة حصار الصليبيين لعكا بقيادة بهاء الدين قراقوش والحاجب لؤلؤ الأميني(١٠٦).

وتنوعت أسلحة الفئات الأخرى بتنوع أوصافها ومصادرها(١٠٧)، سواء ما كان منها مصنعًا محليًا، أم مستوردًا من بعض الممالك التي كانت للدولة الأيوبية علاقات تجارية معها، كالمدن الإيطالية، وتزودنا الدراسات الأصيلة والحديثة بقائمة الأسلحة الفردية والجماعية التي كانت تحتويها خزائن السلاح "السلاح خاناة أو الزردخاناة" في العصر

---

(١٠٤) أبو شامة. الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠؛ والمقريزي. الخطط، ج٢، ص١٩٤، ١٢٩؛ وكاهن. الشرق والغرب، ص١٧٦؛ وربيع، حسين محمد. النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، جامعة القاهرة (١٩٦٤م)، ص٧١-٧٣.

(١٠٥) النويري. نهاية الأرب، ج٢٧، ص٩٢.

Et Ibrahim Chabbouh: Le testament Cahen, Clauded, Al Malik As-Salih Ayyub Bullet in Detudes Drientables Tom XX1X Damas (1977). P102-103.

(١٠٦) ابن شداد. ص ٨٤، ١٣٨؛ وابن خلكان. وفيات الأعيان، ج٧، ص١٨٨-١٨٩؛ والصفدي. الوافي بالوفيات. ج٢٤، ص٤٠٥؛ والحياري. صلاح الدين، ص١٤٣.

(١٠٧) للمزيد انظر: النويري. نهاية الأرب، ج٦، ص١٥١ وما بعدها؛ وابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ١٦ أ وما بعدها.

الأيوبي، ومنها المنجنيقات بأنواعها لرمي الحجارة، حيث كان يرتب لكل منجنيق فئة من العساكر يتولّون نصبه في المكان المخصص له، وفي رسالة فاضلية في فتح القدس: "وقدم صلاح الدين المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون، وقدم النصر نسرًا من المنجنيق، وأسمع صوت عجيجها، ورفع مثار عجاجها..."، حتى إن بعض هذه المنجنيقات كان يرمي من الحجارة ما زنته مئة وأربعون رطلاً شاميًا(١٠٨)، واستخدمت الدبابات المصنوعة من الخشب والرصاص والحديد والنحاس، يركب بها المقاتلة في عملياتهم الهجومية، وأسلحة أخرى، مثل الأبرجة الخشبية، بالإضافة إلى الأسلحة الفردية من دروع ورماح وطبر وقوس وسهم، وغيرها من متطلبات المواقف القتالية(١٠٩).

ديوان الجيش:

يرتبط ديوان الجيش ارتباطًا وثيقًا بالإدارة المالية، وله أهمية خاصة بمسؤوليته المباشرة عن أرزاق

---

(١٠٨) القاضي الفاضل. رسائل، خط رقم ٥٥٠٩ ورقة ١٩أ؛ والشيزري، أبو الغنائم مسلم بن محمود الشيزري (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٤٤م). جمرة الإسلام، تحقيق محمد إبراهيم جود، أبو ظبي، المجمع الثقافي (٢٠٠٥م)، ص٣٥؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢٦ - ٢٧؛ وكاهن. الشرق والغرب، ص٣٣؛ وهنتس، فالتر (Walther Hinz). المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي، عمان، الأردن، الجامعة الأردنية، (٢٠٠١م)، ص٣٣.

(١٠٩) القاضي الفاضل. رسائل، خط رقم ٥٥٠٨، ورقة ٣٤أ، ٨١ ب؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢٨١؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص ٦٥٨؛ وابن فضل الله العمري. التعريف، ص٢٦٤ وما بعدها.

المجاهدين(١١٠)، فإذا ما أقر ديوان الجيش إقطاعًا، كان يخرج له من ديوان المال براءة ومرسوم خاص بهذا الإقطاع(١١١)، ولعلاقة ديوان الجيش بالديوان العام المسمى ديوان الإنشاء أحيانًا، فإن لديوان الإنشاء الحق في مساءلة ديوان الجيش(١١٢) إن لم يكن ناظر الديوان السلطاني هو ناظر ديوان الجيش(١١٣)، ولهذا الديوان نفوذ واضح في تراتيب إدارة العساكر وتنظيمهم، وتخطيط العمليات الحربية، فيرافق الجيش في حملاته(١١٤).

ويزودنا المخزومي عند حديثه عن ديوان الجيش بالديار المصرية في الفصل الثاني عشر من كتابه بحديثه عن هذا الديوان وإشرافه على إقطاع الجيش، حتى إذا ما أقر

---

(١١٠) أول من أنشأ هذا الديوان هو عمر بن الخطاب. انظر: المخزومي، القاضي أبو الحسن علي ابن القاضي عثمان بن يوسف بن منبه القرشي (ت بعد ٥٨١هـ/ ١١٨٥م). المنهاج في علم خراج مصر، مصور عن مخطوط المتحف البريطاني تحت رقم (Add 23483)، وهو لدى الدكتور فالح حسين، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية. ورقة ١٠٦ ب.

(١١١) نفسه. ورقة ١١٣ ب؛ والسيد الباز العريني. الإقطاع في الشرق الأوسط، ص١٤٦.

(١١٢) النابلسي، عثمان بن إبراهيم (ت نحو ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م). لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، نشر مجلة المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق (١٩٦٠-١٩٨٥م)، ص٢٣.

(١١٣) الصفدي. الوافي بالوفيات، ج٦، ص١٨٠-١٨١.

(١١٤) الأصفهاني. البرق، ج٣، ص٣٢؛ ودجاني، هادية شكيل. القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني العسقلاني (٥٢٦-٥٩٦هـ/ ١١٣١-١١٩٩م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١ (١٩٩٣م)، ص٢٤٠.

الإقطاع على شخص ما صدّق عليه متولي ديوان المال، ويحتفظ بنسخته في ديوان الجيش والإقطاعات، وإذا اختص ديوان الجيش بالواجبات العسكرية كان اختصاص ديوان المال بعبرة الإقطاعات وورادتها، أي أن العلاقة وثيقة بينهما(١١٥)، ويقسم ديوان الجيش إلى دواوين: ديوان خاص برواتب الجند، وديوان العرض الذي يصدر براءته؛ ليوقعها متولي ديوان المال، وبكل عمل إقطاعي نائب عن هذا الديوان، حتى أصبح هذا الديوان بعموميته يمثل ديوان الإقطاعات؛ فيحتفظ بسجلات التواقيع والبراءات الإقطاعية(١١٦).

يرأس هذا الديوان ناظر يراجع البيانات الخاصة بالإقطاع العسكري، وينظر في سجلاته الإقطاعية التي ينعم بها السلطان على أمرائه، فكانت له مكانة مرموقة عند مختلف الأمراء المقطعين، ثم هناك العارض الذي يتولى عرض الجنود وقراءة أسمائهم على السلطان عند الحاجة، وله مهمة تنفيذ أوامره الخاصة بكل جندي من هؤلاء الجنود(١١٧)؛ لذا يحرص السلطان على أن يكون متولّي هذا الديوان من خاصته ومقربيه، ويوليه اهتمامًا زائدًا على باقي الدواوين،

---

(١١٥) المخزومي. المنهاج، ورقة ١٠٤ب - ١١٥ ب. وسوف يأتي تعريف "العبرة" في الحديث عن مهمات ناظر الديوان.

(١١٦) للمزيد انظر: نفسه. ورقة ١٠٤ب، ١١٢ أ، ١١٥ ب؛

Thoumian. Bernadette Martel. Les Cirils Et: L'Adrministration Dans L'Etat Militaire Mamluk. Instit Francais De Damas. (1991) P47.

(١١٧) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢٥؛ والنابلسي. لمع القوانين، ص٢٣؛ والخالدي. المقصد الرفيع، ورقة ١٣٦.

فيقوم الناظر بمهامه على أكمل وجه(١١٨)، فإذا طالبه السلطان أو الملك بالأسماء المسجلة في هذا الديوان قرأها العارض أمامه، فيروى أن الملك الظاهر - صاحب حلب - قد طلب سجلات الديوان، فتفقد جنده كلاًّ باسمه(١١٩)، فلا بد من التدقيق في علاقة ولاة الديوان بالجند، فإذا ما تواطأ وماطل هذا الديوانٍ في دفع رواتب الجند وجامكياتهم - مثلاً - أحدث ذلك خللاً وتفرقًا في صفوف الجند، وهذا ما حدث في حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م؛ لذا أولى السلاطين والملوك ديوان الجيش كل اهتمام(١٢٠). ولديوان الجيش عدة مهام، منها - كما ذكرنا - توزيع الإقطاعات على الأمراء، ومنها الاهتمام بشؤون الأسرى، والإشراف على ظروف أسرهم وحال عائلاتهم، وخاصة في حال التواصل والتراسل ما بين الأسير وأهله(١٢١)، وقد يتولى ديوان الجيش تسجيل أسماء العساكر الذين يودون أداء فريضة الحج، وله مهمة توفير النفقات الخاصة بهذه القافلة(١٢٢)، ولهذا

---

(١١٨) المخزومي. المنهاج، ورقة ٤ أ، ٤ ب؛ والشيزري. المنهج المسلوك، ص٣٠؛ وأبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص٢٢٩؛ والمقريزي. السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٤؛ وطرخان. النظم الإقطاعية، ص١١٩؛
Holt. The Age of the Crusades P74 .

(١١٩) اليافعي. مرآة الجنان، ج٤، ص٢٧؛ وابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب، ج٥، ص٥٦.

(١٢٠) المعاضيدي وآخرون. الوطن العربي، ص١٧٩؛
Cahen. d'Al-Malik As-Salih, P102.

(١٢١) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٥١، ١٦٥؛ وسعداوي. جيش صلاح الدين، ص٦٨.

(١٢٢) أبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص٢٧٤.

الديوان - باستشارة السلطان - التقرير في أمر راحة الأجناد وإعطائهم الإذن بالعودة إلى بيوتهم وإقطاعاتهم، وخاصة عند قدوم الشتاء، أو في موسم جني المحاصيل، وله حق الاعتذار عن راحتهم وغيبتهم(١٢٣)، حيث يصدر هذا الديوان أمره ومرسومه بعودة الجنود إلى معسكراتهم، واتخاذ الاستعدادات اللازمة، من حيث النفقات المقررة لهذه القوات عند عودتها، أو تتخذ الاحتياطات اللازمة بإيجاد البدل لهذه القوات الغائبة، فيبقى السلطان وبعض قواته بحلقته الخاصة؛ كيلا يترك للصليبيين طمعًا في هلاكه والسيطرة على أراضيه(١٢٤)، فالصليبيون قد يستغلون فرصة جني المحاصيل خاصة، فيشرح لنا المؤرخ الفرنجي المعاصر لهذه الفترة التاريخية في حديثه عن تقدم الفرنج باتجاه بيت المقدس، وقد عقدوا اجتماعًا لهذا الخصوص: "وقرروا أن من صالحهم إتمام الرحلة إلى بيت المقدس وقت جني المحاصيل"(١٢٥)، وهذا ما نلاحظه في أحداث سلطنة صلاح الدين وحروبه في أعقاب فتح القدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، حيث ملّت العساكر الحرب لملازمتها القتال ليلاً ونهارًا،

---

(١٢٣) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٤٦؛ وأبو الفداء. المختصر، ج٣، ص٧٥.

(١٢٤) الأصفهاني. الفيح القسي، ص٣٢٨؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٥٢؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص١٤٧؛ والدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص٣١١؛ وحسين. الجيش الأيوبي، ص٢١٨.

(١٢٥) مجهول. أعمال الفرنجة، ص١١٣؛ وسميل. الحروب الصليبية، ص٧٥، ١٤٦.

فقلّت أقواتهم وأزوادهم، فآثروا الراحة والعودة إلى بيوتهم(١٢٦).

وتولى ديوان الجيش، ضياء الدين بن أبي الحجاج(١٢٧)، وعلم الدين إسماعيل بن عبدالجبار المقدسي، المتوفى سنة (٦١٠هـ/ ١٢١٣م) (١٢٨)، وعون الدين سليمان بن عبدالمجيد العجمي ممن تولوا ديوان الجيش للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في بلاد الشام(١٢٩)، وتولاه لصلاح الدين في مصر، المهذب بن أبي المليح بن مماتي، ثم ولده أبو المكارم الأسعد مهذب الدين بن مماتي، حيث استمرت ولايته للديوان في عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين(١٣٠)، وتولاه للملك الصالح إسماعيل في دمشق جمال الدين جمال الكفاة، ثم القاضي مكين الدين بن قرونية(١٣١)، وتولاه للملك الصالح نجم الدين أيوب، جمال الدين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح(١٣٢)، وتولى

---

(١٢٦) ابن الأثير. الكامل، ج١١، ص٥٥٧؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢٢؛ وأبو الفداء. المختصر، ج٣، ص٧٣؛ وابن الوردي. تتمة، ج٢، ص١٤٣؛ وابن أبي الهيجاء. تاريخ، أحداث سنة ٥٨٦هـ.

(١٢٧) أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص٢٤٤.

(١٢٨) الصفدي. الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٤٢؛ وابن الفرات. تاريخ، م٥، ج١، ص١٤٣.

(١٢٩) الكتبي. محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م). فوات الوفيات والذيل عليها، ٥ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٩٧٣م)، ج٢، ص٦٧.

(١٣٠) المقريزي. الخطط، ج٢، ص١٦٠؛ وحسين. جيش صلاح الدين، ص٤٠.

(١٣١) الصفدي. الوافي بالوفيات، ج٦، ص١٨٠ - ١٨١.

(١٣٢) ابن القلانسي. ذيل تاريخ دمشق، ج١، ص١٩٧ - ١٩٨؛ والمقريزي. السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٤.

نظر ديوان الجيش في عهد الملك الناصر يوسف بن العزيز - صاحب حلب - علاء الدين أبو الحسن بن الشيخ منتجب الدين محمد بن نصر الله الحلبي الناصري(١٣٣).

ويتولّى كتابة وثائق هذا الديوان كاتب الجيش بإشراف ناظر الديوان، ويتطلب في هذا الكاتب أن يكون عارفًا بعبرة الإقطاعات ضابطًا لحساباتها، محتاطًا في الألفاظ التي يستخدمها في كتابته(١٣٤)، ولهذا الكاتب جريدة بأسماء الجند ومراتب إقطاعاتهم، كل على مرتبته وطبقته باسمه وكنيته، وتحفظ هذه الجرائد في ديوان المال(١٣٥)، أما في حال رحلات الجيش وحملاته فتكون لصاحب هذا الديوان خيمة إلى يمين خيمة السلطان، ليكتب له الرقاع الخاصة بالخطط العسكرية، وتوزيع المهام والواجبات لكل أمير في

---

(١٣٣) ابن شداد. تاريخ الملك الظاهر، ص١٤٦.

(١٣٤) العبرة: هي العطاء الكثير عن كل إقطاع. البطليوسي، أبو محمد عبدالله بن السيد (ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م). الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ٣ق، تحقيق مصطفى السقا، حامد عبدالمجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٨١م)، ق١، ص ١٤٢، ١٤٨؛ وابن أبي الربيع، أحمد بن محمد (ت أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي). سلوك المالك في تدبير الممالك، دراسة وتحقيق ناجي التكريتي، دار تراث عويدات، بيروت، وباريس، (١٩٧٨م)، ص ١٥٩؛ والخالدي. المقصد الرفيع، ورقة ٣٦ أ.

(١٣٥) ابن شيث القرشي، عبدالرحيم بن علي (ت٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م). معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق الخوري قسطنطين الباشا المخلصي، طبع في بيروت، المطبعة الأدبية، (١٩١٣م)، ص ٢٤ - ٢٥؛ والقرشي، أبو سالم محمد بن طلحة القرشي النصيبي (ت٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م). العقد الفريد للملك السعيد، مطبعة الوطن، (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م)، ص ١٥٤؛ والقلقشندي. صبح الأعشى، ج١٣، ص١٩٣، ١٧٣.

معسكره(١٣٦)، وممن تولى الكتابة لها في عهد الملك العادل وما سبقه، ضياء الدين بن أبي الحجاج السابق ذكره(١٣٧). وهناك ما عرف بالترجمان الذي تحتاج إليه القيادة العسكرية في مفاوضتها مع الصليبيين، فيعرب الألفاظ ويترجم الكتب لتقرأ على السلطان، فيقرر ما يراه مناسبًا بشأنها(١٣٨). ويصدر هذا الديوان أوامره ويتلقّى رسائله في رقاع خاصة توضع تحت أجنحة الطيور أحيانًا(١٣٩).

نُظم هذا الديوان بإدارته السالفة وألحق به ما يعرف بقاضي العسكر الذي يتولّى الحكم بين الجند فيما أشكل بينهم، وله السماع إلى شكاواهم ومظلماتهم، وبالمقابل الاشتراك في وضع الخطط الحربية لسير المعارك لمداومته على مرافقة العسكر، ويذكر أن ابن شداد بهاء الدين أبا العز يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الحلبي، المتوفى سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م، وضع كتابًا في الجهاد بآدابه وأحكامه، وكان قاضيًا لعسكر صلاح الدين(١٤٠)، وكذلك شمس الدين محمد

---

(١٣٦) الأصفهاني. البرق، ج٥، ص١١٦؛ والحياري، مصطفى علي. القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، نشر المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان، (١٩٩٤م)، ص٨٣.

(١٣٧) البغدادي، الموفق عبداللطيف. الخليفة الناصر، منشور في مجلة المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق، (١٩٧٠م)، ص ١١٢.

(١٣٨) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص ١٦٣؛ والخالدي. المقصد الرفيع، ورقة ١٠٤.

(١٣٩) انظر: ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٢١٧، ١٣١؛ وصلاح الدين البحيري. المخابرات الأيوبية، ص١١٤.

(١٤٠) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٨٦؛ وابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب، ج٥، ص ١٥٨.

بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش الدمشقي، المتوفى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وكان قاضيًا للعسكر، فترسل تلك الأحكام عن السلطان إلى حكام الأقاليم ومقطعيها، فيذكر أن ابن الفراش قد رافق العماد الكاتب لمساءلة مظفر الدين كوكبري - صاحب حران -(١٤١)، وتولّى نجم الدين خليل بن علي بن الحسين المصمودي الحنفي الحموي، المتوفى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، قضاء عسكر العادل الأيوبي بعد أن كان البدر بن الأبيض قاضيًا لعساكره(١٤٢).

وترد الإشارة إلى بعض الوظائف العسكرية الديوانية من أرباب السيوف كالدوادار(١٤٣)، ونقابة العساكر، والمهمندارية، وهي الوظيفة التي يتولى صاحبها استقبال الرسل وغيرهم من الواردين على سلطان الدولة وينزلهم في دار الضيافة، ثم شد مراكز البريد، الذي يتولّى تفتيش خطوط البريد لمتابعة سير السعاة والخيالة، وأمير آخور الذي كانت ولايته تتعلق بإسطبل السلطان وخيوله(١٤٤)، وناظر الزردخاناة الذي

---

(١٤١) أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص٢٠٩؛ والبنداري. سنا البرق الشامي، ج١، ص٢٥٤ - ٢٥٥؛ وابن كثير. البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٧٥؛ وابن النظيف الحموي. التاريخ المنصوري، ص٥٤، والمساءلة تعني: التحقيق معه.

(١٤٢) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص١٨٠؛ والمقريزي. السلوك، ج١، ق١، ص١٦٧؛ وابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٤٨.

(١٤٣) الدوادار: هو حامل دواة السلطان، ويتولى مهمة تبليغ الرسائل عنه. انظر: البقلي. التعريف، ص١٣٩.

(١٤٤) للمزيد انظر: المقريزي. السلوك، ج١، ق١، ص١٤١؛ والقلقشندي. صبح الأعشى، ج٥، ص٤٥٩؛ والبقلي. التعريف، ص٤٧، ٣٣٤؛ وجبران. مملكة حماة، ص١٣٣، ١٣٩.

يشرف على بيت تموين الجيش من الأسلحة والعتاد اللازم، وكان يعيّن من قبل السلطان مباشرة: "توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي الفلاني في خزائن السلاح على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته"(١٤٥).

الإقطاع العسكري:

ارتبطت السياسة الإقطاعية للدولة الأيوبية على الأغلب بخصوصية بعض الإقطاعات المهمة لكبار القادة العسكريين ومقدمي الطُلب التي شاركت في العمليات القتالية، فوجد ما يعرف بديوان الإقطاع الذي يتولى توزيع الإقطاعات على الأمراء(١٤٦)، أما من لم يشملهم النظام الإقطاعي من أفراد الجيش فقد سموا بالبطالين - العاطلين عن العمل - فيتولى ديوان الإقطاع صرف عطائهم في أوقات المعارك، وهذا ما ذكر بحق بعض الأمراء عند حصار الفرنج عكا سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م(١٤٧).

جعل صلاح الدين ومن جاء بعده لأمرائه ومماليكه الإقطاعات(١٤٨)، وإن كانت بعض هذه الإقطاعات قد تتفاوت مساحتها، ولا تحدد مدة الانقطاع المقررة في سجلات الديوان، وتتأثر بالوجود العسكري الصليبي في هذه المنطقة(١٤٩)، حيث يقطع هذا الأمير أو ذاك مقابل تعهده

---

(١٤٥) نبيل عبدالعزيز. خزائن السلاح، ص ١٠٨، ١١٣.

(١٤٦) البقلي. التعريف، ص ٨٩.

(١٤٧) الأصفهاني. الفيح القسي، ص ٤٥٧؛ وأبو شامة. الروضتين، ج١، ق٢، ص٥٣٢.

(١٤٨) البنداري. سنا البرق الشامي، ج١، ص٢٥٨.

(١٤٩) طرخان. النظم الإقطاعية، ص٤٨.

بإرسال التقارير عن أحوال إقطاعه لإدارة الدولة، ويلتزم بتقديم مجموعة من الجند لإدارة الدولة المركزية إذا طلب منه ذلك(١٥٠)، إذ يتعهد كل مقطع بأن يخرج إلى الحرب ومعه عدد من الفرسان باذلاً ما يستطيع في الدفاع والمواجهة، وإذا أخل الأمير بهذا الشرط حُرم من إقطاعه، وهذا ما أقدم عليه صلاح الدين حيث أخذ إقطاعات جماعة من الأمراء في أعقاب هزيمة الجيش الأيوبي في وقعة الرملة سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، ثم عند سقوط عكا سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م(١٥١)، فمما لا شك فيه أن لكل مملكة أيوبية أو إقطاعية عسكرية قواتها الخاصة بها، ومجموعها هو تعداد هذا الجيش، فعسكر دمشق كانوا ألف فارس(١٥٢)، وكذا عسكر حماة(١٥٣)، وحلب(١٥٤). أما حمص والكرك فلم تتوافر لنا المعلومات الكافية عن أعداد جندها غير ما ذكر سابقًا بأنه كان لأسد الدين شيركوه فيها خمسمئة مملوك سموا بالأسدية، بالإضافة إلى ما تستعين به الدولة الأيوبية من عساكر الإمارات الأخرى في بلاد الموصل والجزيرة(١٥٥).

---

(١٥٠) جب. صلاح الدين الأيوبي، ص١٨٦؛ وطرخان، النظم الإقطاعية، ص٦٦.

(١٥١) ربيع. النظم المالية، ص٣٥.

(١٥٢) الأصفهاني. البرق، ج٣، ص١١٧؛ وأبو شامة. الروضتين، ج١، ص٢٥٠؛ ويذكر أن عدد عساكر دمشق بلغ ثلاثة آلاف جندي في عهد الملك المعظم عيسى. انظر: الدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٧؛ والذهبي. سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص١٢٢.

(١٥٣) وهكذا كان عدد عسكرها في أحداث سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م. انظر: الأصفهاني. البرق، ج٣، ص١٣٨.

(١٥٤) جب. دراسات، ص ١٠٥.

(١٥٥) نفسه.

ملابس العساكر:

إن الروايات عن الملابس التي استخدمتها عساكر الدولة شحيحة، غير ما ذُكر من لباس الأمراء والقادة، وعلى حد قول المؤرخ الصليبي وليم الصوري فإن لباس العساكر كان من الحرير الأصفر أحيانًا، ولكن ربما امتاز هذا اللباس العسكري بالبساطة، كما كانت عليه الجيوش الإسلامية السابقة، كلبس السنجق، وشد السيوف على الوسط، والدبابيس تحت الركب، ولبس الشربوش على الرأس، حتى جاء عهد الملك المعظم عيسى، فاستحدث الكلوته الصفراء بلا شاش - وهي غطاء للرأس كالطاقية تلف حولها العمامة - ، ولُبِست بعض الأقبية - الزرد - فوق الثياب(١٥٦)، ووجدت إدارة دار الطراز الأيوبية، التي تنسج بها جميع أنواع الأقمشة، وينقش على الألبسة اسم السلطان، ربما من الحرير أو الذهب الذي يخالف لون القماش، والتي يتولاها أحد الرجال المقربين للسلطان، ولاسيما إذا كانت هذه الدار هي صاحبة الشأن في وضع الألبسة الرسمية للملوك والأمراء(١٥٧).

التموين:

وإن اعتمدت القوات الإقطاعية على تجهيز نفسها، فقد رافق الجيش في حروبه الزردخاناة وخزائن السلاح الخاصة

---

(١٥٦) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٤٤؛ والكتبي. فوات الوفيات، ج٤، ص ٣٦٧.

(١٥٧) حيث كان لكل فئة سلطانية ومرتبة إدارية لباسها الخاص. انظر: القلقشندي. صبح الأعشى، ج ٣، ص٥٣٧، ٤٧٢؛ البقلي. التعريف، ص١٢٩.

بالسلطان وفيها أنواع الأسلحة المختلفة من دروع وسيوف ورماح وغيرها، ثم الأسواق، ويتولّى أمرها متخصصون بتوزيع هذا السلاح على الجند باختلاف مواقعهم(١٥٨)، وكذلك توزيع الأموال، فالدولة لم تبخل ببذل المال في سبيل تحقيق أهدافها العسكرية، ووجدت أن هذه الأموال هي التي تحدد مصير المعركة(١٥٩)، فحملت كل هذه الأثقال العينية والنقدية على ظهور الجمال والبغال المخصصة لهذا الغرض، حتى بلغت سبعين ناقة في بعض المعارك(١٦٠)، وكانت إدارة الجيش المتخصصة تهتم اهتمامًا كبيرًا بهذه الأثقال، فتجعلها في منطقة آمنة كساقة الجيش أو قلبه بحراسة بعض القوات، حتى لا تصل أيادي القوات الصليبية إليها، وتُرفد من هذه

---

(١٥٨) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٠٦٦؛ والطرسوسي. تبصرة أرباب الألباب، ص١٢، ١٠، ٦، ٤، وغيرها؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص١٣٥؛ والقلقشندي. صبح الأعشى، ج٤، ص١١؛ والبقلي. التعريف، ص١٦٩؛ وربما استخدمت الزردخاناة أحيانًا سجنًا لمن فر من المعركة. انظر: ابن الفرات. تاريخ، م٤، ج٢، ص١٧-١٨.

(١٥٩) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٨١؛ والقاضي الفاضل. رسائل، خط رقم ٥٥٠٧، ورقة ٨ أ.

(١٦٠) الذهبي. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٤ج، تحقيق د.بشار معروف، ساعدت جامعة بغداد على نشره، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج أحداث سنة ٦١١-٦٢٠هـ، ج أحداث سنة ٦٢١-٦٣٠هـ، ج أحداث سنة ٦٣١-٦٤٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٩٨٨م)، ج أحداث سنة ٦١١-٦٢٠هـ، ص١٢؛ والمعاضيدي وآخرون. الوطن العربي، ص١٣٩؛ وجب. صلاح الدين الأيوبي، ص٦٦-٦٧؛ Regan.Saladin P.P 124-125 .

الأثقال العساكر الموجودة في المناطق المحاصرة من جهة أخرى(١٦١).

وترافق الحملة قافلة التموين، وتحتوي على كل ما يحتاج إليه الجند، وكانت هناك جماعة تتولّى توزيع الأرزاق والمؤن، موثقة من خلال كتابات الديوان، توزع على القادة والأمراء ليوزعها كل قائد على أمرائه، ثم من يد الأمراء لجنودهم(١٦٢)، بالإضافة إلى وجود السوق التجاري بطباخيه وخبازيه، الذي يرافق العساكر للبيع والشراء زيادة على مخصصاتهم من الثقل(١٦٣)، وربما لجأ بعض أصحاب هذا السوق إلى رفع الأسعار واستغلال العساكر في مثل هذه الأوقات الحرجة، يقول العماد الأصفهاني في أحداث سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م: "فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، أخذ السعر في الارتفاع فقلت لغلامي: فاعرض للبيع أحمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السعر في الارتفاع، وأنا صاحب قلم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من

---

(١٦١) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٩٧؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٦٠؛ وأبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص٢٤٣؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٢٣٠، ٢٣١.

(١٦٢) المقريزي. السلوك، ج١، ق١، ص١٥٠؛ ونوري. سياسة صلاح الدين، ص٤٦٠؛ ولم تسعفني الروايات بتحديد الكميات اللازمة من الميرة والسلاح لهذا الجيش. انظر

Ehrenkreutz. Saladin. P124.

(١٦٣) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٧٠؛ والنويري. نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤١٣؛ ودريد نوري. الفكر العسكري للقائد صلاح الدين الأيوبي: دراسات في معركة حطين، مجلة المورد، العراق، م١٦، ع٤، (١٩٨٧م)، ص ٦٩-٨٤، ص٧٦.

عاقبة ندم"(١٦٤)، فلهذا ربما دخل الوهن في صفوف الجيش بهذه الهفوة وهذا الاستغلال(١٦٥).

وقد تكون الميرة للجيش بأن يحمل العساكر أزوادهم، فيخاطب السلطان عساكره للتزود حسب المدة المتوقع قضاؤها في حملته العسكرية، ففي وقعة الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م نودي: "بأن خذوا زادكم عشرة أيام أخرى... أو زاد شهر في مواقع أخرى"(١٦٦)، ويروى في أحداث سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م العسكرية أن السلطان الأيوبي قد أمر بإعداد الدقيق بكميات كبيرة؛ لتتزود منها العساكر عند هجومها على أحد الحصون المجاورة(١٦٧).

خُطة عسكرية واستراتيجية قتالية:

يبدو أن الخطة العسكرية الأيوبية في القتال قد اعتمدت على دراسة وافية ومعرفة واقعية للظروف المحيطة بمعاركهم مع الطرف الآخر، فكأني بهم آخذون بقول ابن منكلي: "اصطفوا كجناح العقاب الكاسر وشدوا شدة الضيغم الحادر..."، فقرأ القادة وطالعوا المصادر المعرفية التي ترفدهم بالأساليب القتالية(١٦٨)؛ إذ تطلبت الظروف العامة

---

(١٦٤) مجهول. أعمال الفرنجة، ص٨٦، ٥٥؛ والأصفهاني. البرق، ج٣، ص٣٢.

(١٦٥) ابن الفرات. تاريخ، م٤، ج٢، ص٢٨.

(١٦٦) الأصفهاني. البرق الشامي، ج٣، ص٣٢؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص٨٦؛ وجب. دراسات، ص١١٠.

(١٦٧) الأصفهاني. الفيح القسي، ص١٧٥.

(١٦٨) الضيغم: من أسماء الأسد. للمزيد انظر: ابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٦٥ ب، ٦٦ أ، ٦٨أ، ٧١ب.

التي عاشتها الدولة الأيوبية المزيد من المعرفة عن القوى الصليبية المتأهبة على أطراف بلاد الشام، ولهذا كان دخولهم المعارك بحذر، واتخاذ الاحتياطات المناسبة قبل اللقاء الفاصل، فنشطت العيون الأيوبية في المعسكرات الصليبية، وهذا ما أكدته الدراسات المختلفة، فصلاح الدين قد اشتهرت عيونه بقوتها وتفوقها، ومن هنا كان قائدًا محنكًا، حيث عرف مقدرة عدوه، وأخفى عنه أخباره(١٦٩)، وهذه الفئات من المؤكد أنها لم تكن تحتاج إلى السلاح وإنما تدخل المعسكر الصليبي وتتعايش معه، وتزود الإدارة العسكرية الأيوبية بالمعلومات الوافية الدقيقة(١٧٠) من خلال إشارات بريدية خاصة تتعامل بها(١٧١)، فتجمع المعلومات الخاصة بالعساكر، وكل ما يتعلق بسكان المدن المراد فتحها بظروفهم ومعاشهم ودافعيتهم، فيذكر أن الأيوبيين قد نظموا رجالاً من الصوفية والرهبان لمثل هذا العمل، فطرد الملك المعظم عيسى راهب حصن الشوبك سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م مخادعًا في تصرفه هذا ليأتيه بالأخبار عن المعسكر الصليبي، وهذا يؤكد لنا دور الفئات النصرانية المحلية في مواجهة الغزو الصليبي الغربي لأرضهم(١٧٢)، واستعان الأيوبيون ببعض فئات السكان المسلمين الذين يسكنون بمحاذاة الممالك

---

(١٦٩) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٠؛ وابن أبي الربيع. سلوك المالك، ص١٤٣.

(١٧٠) لامب. شعلة الإسلام، ص١٩٢؛ وكاهن. الشرق والغرب، ص١٨٦.

(١٧١) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٤٦.

(١٧٢) صلاح الدين البحيري. المخابرات الأيوبية، ص١٢٢.

الصليبية، واستعانوا كذلك بالمستأمنين من بعض الصليبيين، حيث يتعاونون مع إدارة الدولة مقابل تعهدها بإطلاق سراحهم والإفراج عنهم(١٧٣)، إذ كانت بعض الظروف تتطلب أن تأتيهم الأخبار ساعة بساعة، وتبقى قرارات الإدارة العسكرية العليا مرهونة بدقة معلومات العيون وأصالة مواردهم في أخبارهم، وهذا ما تؤكده الأحداث العسكرية سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م؛ فيشير العماد الأصفهاني إلى نفوذ صلاح الدين في مدينة أنطاكيا من خلال جواسيسه هؤلاء، حتى إنه يعتبرها من المدن التي تستثنى من السيطرة الصليبية المباشرة(١٧٤).

ثم يبدأ دور طلائع الجيش (الجاليشية) أو اليزك، الذين كلفوا ببعض المهام الاستخبارية كسابقيهم، فاليزك فرقة عسكرية يسبقون الجيش للاستخبار عن أعداد الصليبيين وعدتهم(١٧٥)، ويدرسون طبوغرافية الأرض ومؤونة المنطقة من الحقول الزراعية وغير ذلك من الظروف التي تؤثر تأثيرًا مباشرًا في نتيجة المعركة، وهذا ما كان من اليزك قبيل فتح حصن بيت الأحزان، الواقع على السفح الجنوبي الشرقي لجبل الشيخ سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، وغيرها من الأحداث

---

(١٧٣) انظر: ابن شداد. النوادر السلطانية، ص ١٤٤؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص١١٤-١١٥؛ وصلاح الدين البحيري، المخابرات الأيوبية، ص١١٨.

(١٧٤) الهروي. التذكرة الهروية، ص٨٧؛ والبنداري. سنا البرق الشامي، ج١، ص١٦٥.

(١٧٥) الصوري. الحروب الصليبية، ج١، ص٤٧٥، ج٢، ص١٠٤١، ١٠٤٤؛ وابن عبدالظاهر. الروض الزاهر، ص١٣٧.

العسكرية التي تتطلب مثل هذه الدراسة(١٧٦)، فيذكر أن صلاح الدين الأيوبي قد أرسل قوة استطلاعية قبيل معركة حطين، بقيادة مظفر الدين كوكبري (الذئب الأزرق) بلغ عددها سبعة آلاف خيال؛ لاستطلاع قوة الصليبيين وكشفهم ومناوشتهم(١٧٧)، فقد يكون من متطلبات أمن العساكر إلحاق بعض الفرق العسكرية باليزك، وخاصة إذا ما تعرضت هذه الطلائع للخطر والهجوم المعادي(١٧٨)، حيث تشنّ فرق اليزك أحيانًا بعض الغارات، كغاراتها في حصار صور، وعلى عكا سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م(١٧٩)، وتكلف بالإضافة إلى مهامها الاستخبارية بحماية الحصون من جهة، أو بحصار القوات الصليبية في حصونها من جهة أخرى(١٨٠)، ويتقدم اليزك من مواقع القوات الصليبية حسب قدراتها والظروف العسكرية لسير المعارك(١٨١)، فيذكر لنا شوفيل (Shuvel) أنه كان "لكل كتيبة جاليشية ويزك خاص بها"(١٨٢).

---

(١٧٦) مصطفى علي الحياري. حصن بيت الأحزان، مجلة دراسات، ص٤٩، ٥٠، ٥١.

(١٧٧) عبدالجبار السامرائي. معركة حطين، مجلة المورد، م١٦، ع٤، ص٢٠.

(١٧٨) الدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص١٠٨.

(١٧٩) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٢٨٥؛ والمقريزي. السلوك، ج١، ق١، ص١٠٥؛ وعاشور، سعيد عبدالفتاح. الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الحربي في العصور الوسطى، ٢ ج، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، (١٩٦٣م)، ج٢، ص٨٠٢.

(١٨٠) عن مهام اليزك انظر: ابن شداد. النوادر السلطانية، ص ١٠٣، ١٠٦، ١٤٧؛ ولامب. شعلة الإسلام، ص٢٥٧.

(١٨١) أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص ١٨٩.

(١٨٢) شوفيل. صلاح الدين، ص٣٠٦.

ويختار أفراد فرقة اليزك من أهل النصح والنجدة والتجربة، ويتجنب قدر الإمكان أفراد اليزك قتال الصليبيين(١٨٣)، فيروي ابن شداد قاضي عسكر صلاح الدين وكاتب سيرته أنه كان أحد أفراد هذه الجماعة في فتح قلعة بغراس قرب أنطاكيا(١٨٤)، وذكر من قادتهم علم الدين سليمان بن جندر، وقايماز الحراني، اللذين فاوضا الصليبيين عند حصار عكا(١٨٥)، وقد يكون من شروط هذه الفئة أحيانًا إتقانها للغة الجيش الصليبي، وخاصة لقربهم منهم، وواجباتهم الاستخبارية المعرفية عن هذا الجيش(١٨٦).

اعتمد الأيوبيون في حروبهم على خُطة الكمائن، التي كان الأتراك يقومون بها على الأغلب، لشجاعتهم وإقدامهم وصحة أجسامهم، إذ تطلب في عساكر الكمين أن يكون خاليًا من العلل، دقيق السمع، خفيف الحركة(١٨٧)، ويتخذ هذا الكمين مواقع متقدمة في حالة الدفاع، ليضلل الطرف الصليبي، ففي حصار الصليبيين عكا سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م أمر صلاح الدين بعمل كمين في سفح تل، وخُطط لبعضهم بأن يظهر أمام الصليبيين، حتى إذا ما لاحقوهم ساروا بهم نحو الكمين،

---

(١٨٣) انظر: أبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص٢٤٢؛ وحسين. الجيش الأيوبي، ص١٧٧، ١٨٩.

(١٨٤) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٩٣؛ وأبو شامة. الروضتين، ج٢، ص١٣٣.

(١٨٥) ابن شداد. ص١٣١؛ والعليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٧٩.

(١٨٦) صلاح الدين البحيري. المخابرات الأيوبية، ص١١٨.

(١٨٧) العليمي. الأنس الجليل، ج١، ص٣٦٩؛ والحياري. صلاح الدين، ص٢٢٠؛ وسعداوي. جيش صلاح الدين، ص٥١.

فوقع الأسر في صفوف العساكر الصليبية، فكان بالكمين بعض الانتصارات المباشرة للعساكر الأيوبية(١٨٨).

أما الجسم الرئيس لعناصر الجيش، وإن اعتبره بعضهم كردوسًا واحدًا برايته وقيادته، فقُسم تقسيمًا قبليًا أحيانًا، وإقليميًا إقطاعيًا في أحيان أخرى، وقد يجعل أطلابًا وفرقًا حسب ظروف المعركة، وكل فرقة وطُلب من هذه الأطلاب قد يتراوح عددها ما بين ٧٠ - ٢٠٠ رجل يقودها أمير مقدم، وتوزع الأسلحة من دروع ورماح وسيوف وأقواس، بالإضافة إلى المؤن من الزردخاناة، على أمراء الأطلاب، ليوزعها هؤلاء على أفراد طُلبهم(١٨٩)، ولكل من هذه الأطلاب كوساتها وأبواقها التي تتبادل بها الإشارة فيما بينها(١٩٠)، وقد تقسم بعض هذه الطُلب إلى أفصال أقل عددًا وعدة، تعرف بالكتائب أو الجنيب والكراديس(١٩١)، أو تقسيمات أصغر تعرف بالسرايا والفئات، ولكل من هذه التقسيمات أمراؤها ومقدموها(١٩٢).

---

(١٨٨) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٥٠، ٢٠٠؛ وابن أبي الهيجاء. تاريخ، أحداث سنة٥٨٦هـ؛ ورنسيمان. الحروب الصليبية، م٢، ص٧٠٨.

(١٨٩) القاضي الفاضل. رسائل، خط رقم ٥٥٠٨، ورقة ١٠٢أ؛ وابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة٥٣ ب.

(١٩٠) أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص٩.

(١٩١) الأصفهاني. الفيح القسي، ص٣٦٤؛ والمنهاجي السيوطي. إتحاف الأخصا، ق١، ص٢٥٢.

(١٩٢) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٩٩؛ وديمومين، موريس، غ. (Morris Daimomeen J.). النظم الإسلامية، نقله عن الفرنسية صالح الشماع وفيصل السامر، مطبعة الزهراوي، بغداد، (١٩٥٤م)، ص١٦١.

واتبع الأيوبيون نظام التخميس في الجيش: "مقدمة وقلب وميمنة وميسرة ومؤخرة"، هذه المؤخرة التي تحتوي على المطبخ والخزينة والعدة الإضافية، ولكل من هذه الأخماس مقدمها، فيروى في فتح القدس أن مقدم الميمنة كان عماد الدين زنكي، والقلب كان به السلطان الأيوبي، ومقدم الميسرة مظفر الدين بن زين الدين(١٩٣)، ولكل فرقة عسكرية موقعها، ومن الممكن ألاّ يتغير هذا الموقع في معارك لاحقة، نظرًا للانتصارات التي تحققها هذه الفرقة في هذا الموقع(١٩٤)، ومن هذه الخماسية ينقسم الجيش إلى الكمناء السابق ذكرهم، وغيرهم من تقسيمات الجيش، وقد يسبق الراجل الفارس ليكون له كالحصن، ولاسيما بقدرة الراجل على التستر، وهؤلاء المشاة الرجالة يسيرون بتراص بعضهم مع بعض، حماية لأنفسهم، ثم الرماة الذين يتخللون فئات المشاة، ثم الفرسان الذين يسيرون بهدوء وراء هذه التقسيمات(١٩٥).

ولعلنا نستطيع بعد هذا التعبير بمصطلحات عصرية مناسبة للخطط العسكرية التي اتبعها الأيوبيون كاستراتيجية المعركة ومتطلباتها الأخرى، كنقل القوات واختيار مواقعها وتوزيعها، والتكتيك العسكري بفن تحريكها أثناء سير المعارك والتكتيك، هذا ما اصطلحنا على تسميته هنا بالتعبئة

---

(١٩٣) الأصفهاني، الفيح القسي، ص٢٩٨؛ وابن العديم. زبدة الحلب، ج٣، ص٩٢؛ وأبو شامة. الروضتين، ج٢، ص١٢٦.

(١٩٤) سبانو. مملكة حماة، ص٥٤، ١٥٣.

(١٩٥) الطرسوسي. تبصرة أرباب الألباب، ص٢٣ - ٢٤؛ وابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٤١ ب.

العسكرية، هذه الإدارة العسكرية اليومية التي تتطلبها ظروف المعركة وحالة الجيش، تبعًا لما يصدره المجلس العسكري من خطط وترتيبات إدارية عسكرية قصيرة الأمد كانت أم طويلة(١٩٦)، وربما نستطيع القول بأن الأيوبيين قد أخذوا بمبدأ الاستعداد الدائم لمواجهة أي طارئ، حتى أصبح من شرف الإقدام أن العدو يحب العدو من أجله، ويضطره إلى أن يُقر بفضله، فمنع الأيوبيون اللعب واللهو وتعاطي الخمور في صفوف الجيش لأخذ الأمر مأخذ الجد واليقظة والانتباه(١٩٧).

ولابد قبل دخول المعركة من توحيد الجبهة الداخلية، وعقد المهادنات لتجهيز القوى وإعداد العدة لمواجهة الصليبيين، ثم الاتجاه لتحصين الثغور وإحكامها، فلا يقدم السلطان الأيوبي على هجوم ما إلا إذا ترك ترتيبًا أمنيًا للمدن التي تحت سلطته ونفوذه(١٩٨)، وإذا كانت هذه القوات في انتظار الإمداد، وخاصة إذا ما كانت خطة المعركة، مُعدة على أساس التقسيم الإقطاعي(١٩٩)، سارت ببطء حتى يكتمل بناؤها وتتاح الفرصة لتعبئة من يلتحق بها، فتقطع مسافة

---

(١٩٦) القاضي الفاضل. رسائل، خط رقم ٥٥٠٨، ورقة ١٩٥أ؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص٥٣.

(١٩٧) انظر: أبو شامة. عيون الروضتين، ق١، ص٣٨٠؛ والقلقشندي. صبح الأعشى، ج١٠، ص١٠٧؛ وابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ١٥٢أ.

(١٩٨) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠١٧؛ وابن الأثير. الكامل، ج١٢، ص٨٧.

(١٩٩) أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص٧٥.

اليومين بثلاثة حتى تصل مكانها، فيروى في فتح جبلة: " وما أن استتم العسكر حتى أخذوا البلد"(٢٠٠)، إذ كان المكان هو التعبئة الحقيقية في معركة ذلك العصر، ومعرفته تُعد جزءًا من الانتصار المحقق أحيانًا، ففي رسالة فاضلية بعث بها صلاح الدين للخليفة العباسي المستضيء يبين له أهمية بلاد الشام في معاركه: "وعرفنا أن البيت المقدس إن لم يتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه... وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بُعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب"، وإذا ما أراد الأيوبيون فتح المدينة اختاروا المناطق السهلة لا الوعرة لدخول المدينة والسيطرة عليها، وهذا ما جعل الأيوبيين ينسحبون أحيانًا من مواقعهم، ويناورون ويعدلون في خططهم في ضوء المستجدات الجديدة لاستدراج الصليبيين بعيدًا عن قاعدتهم ومراكز تموينهم، كما كان في حطين، إذ استدرجوهم من صفورية(٢٠١)، ويذكر أن العادل الأيوبي قد استعان بالعساكر الشامية تخصيصًا، لمعرفتهم بالطبيعة المكانية للساحل الفلسطيني سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م(٢٠٢)، وقد يلجأ السلطان إلى أسلوب آخر بتوزيع أعمال حربه على أمرائه، كل منهم توكل إليه مهمة هو أعرف بحيثياتها، فيجب عليه إنجازها، وهو ما يكون دافعًا لهذا

---

(٢٠٠) انظر: أبو شامة. الروضتين، ج٢، ص١٢٧؛ ومصطفى الحياري. حصن بيت الأحزان، ص٥٣.

(٢٠١) أبو شامة. الروضتين، ج١، ص٦٢٢؛ والقلقشندي. صبح الأعشى، ج١٣، ص ٨٩.

(٢٠٢) القلقشندي. صبح الأعشى، ج٨، ص٢٨٦؛ وشوفيل. صلاح الدين، ص٣٨٠؛ ودريد نوري. فكر صلاح الدين، ص ٨٧.

الأمير للظهور على غيره من الأمراء والقادة(٢٠٣)، وربما كان من مناورات الأيوبيين العسكرية دخول الحرب على أرض معادية، أو إخلاء بعض المناطق من سكانها، لتسهيل المناورة وتقليل الخسائر، فاتبع الأيوبيون لتحقيق هذه الغاية تعبئة الهجوم أكثر من انتظارهم في الدفاع(٢٠٤).

ومما لا شك فيه أن الأيوبيين، وخاصة صلاح الدين، قد اعتمدوا في حروبهم ومناوراتهم العسكرية والحصار على تحقيق النتائج بوقت سريع، فيذكر هارولد لامب H.Lamb: أن صلاح الدين قد استطاع أن يسيطر على جميع البلاد الفلسطينية في شهرين اثنين، ويؤيد وجهة نظره هذه القاضي الفاضل في رسالته: " الحمد لله الذي فتح علينا في قليل من الأيام ما لم يفتحه لملوك الأرض في كثير من الأعوام"(٢٠٥)، فإذا ما ألحقت الآلات الحربية الضرر والفتق بالأسوار والتحصينات الدفاعية، أمر القائد بالهجوم لتحقيق النصر بأوفر السُبل وأسهل الطرق، ولاسيما في المناطق الأقل تحصينًا، حتى صنف بعضهم معارك الأيوبيين بمعارك الأسوار والحصون أولاً، والمعارك المكشوفة ثانيًا(٢٠٦)، ومن

---

(٢٠٣) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٨٣.

(٢٠٤) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٨١.

(٢٠٥) سوسن. القاضي الفاضل، ص١٠٦.

(٢٠٦) القاضي الفاضل. رسائل. خط رقم ٥٥٠٨، ورقة ١٠ أ؛ ومجهول. خزانة السلاح، ص١٩٦-١٩٧؛ ومصطفى عليان. صورة البطل المسلم والتصوف الإسلامي في شعر الحروب الصليبية في الفترة ما بين ٥٢١هـ/ ١١٢٧م - ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، عمان، م١١، ع٤، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ص١٥٩-١٧٧، ص١٦٥.

حسن الإدارة العسكرية حينئذ ألا ينشغل الجيش بالتعبئة متأخرًا، فيتمكن الطرف الآخر من الاستعداد وأخذ زمام المبادرة(٢٠٧).

سار الأيوبيون على نهج استغلال النصر المتاح لهم، حيث يتوجه الثقاة من القادة والأمراء بفرقهم لملاحقة الجيش المنهزم والسيطرة على حصونه ومعاقله، قبل أن يتمكن هذا الجيش من تجميع فلوله وإعادة ترتيب قواته، حيث الحفاظ على قابلية الجند العسكرية بأوصافهم من الإقدام والشجاعة، فيرد على لسان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي: "فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيّفهم تحيّف الليل والنهار للأعمار"(٢٠٨)، وربما حاول هذا الجيش قدر المستطاع الابتعاد عن السلب والنهب حيث يؤدي إلى النتائج العكسية على هذا الجيش كما كان في معركة الرملة سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، وخاصة بعدم وجود خُطة محددة لهذه المعركة، فتشتتت القوات وضعف الإمداد للعساكر الأيوبية؛ مما أدى إلى هزيمتها(٢٠٩).

أما الظروف الاقتصادية والتحصينات الدفاعية، فقد كان لها أهمية في خطط الأيوبيين وحروبهم، ما لها عند غيرهم، فطالما أعاد الأيوبيون النظر في خططهم الحربية في ضوء

---

(٢٠٧) جبرائيل سعادة. تاريخ قلعة صلاح الدين، مجلة الحوليات الأثرية، م١٧، ج١، ٢، ص٦٧.

(٢٠٨) أبو شامة. عيون الروضتين، ق٢، ص٤٢.

(٢٠٩) الأصفهاني. الفيح القسي، ص٢٢٦؛ وابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٥٤ أ.

هذه النظرة وأهميتها، فصلاح الدين قد اتجه بعد حطين للساحل ولم يتجه للقدس مباشرة، حيث أراد تأمين ظهر قواته أولاً، وقطع الإمداد عن العساكر الصليبية ثانيًا(٢١٠)، أو قد تتلف بعض القوات العسكرية المحاصيل وما يمكن انتفاع الصليبيين به؛ وهذا ما يضطرهم أخيرًا للتسليم؛ لنقص الميرة وقلة الأقوات، فالملك المعظم عيسى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م سد صهاريج المياه إلى القدس(٢١١)، وفي رسالة فاضلية يصف فيها حالة الصليبيين في مدينة صور المحاصرة: "وما هم بحمد الله في حصن يحميهم، بل في سجن يحويهم، بل أُسارى وإن كانوا طلقاء، وأمواتًا وإن كانوا أحياء"(٢١٢)، أو قد يخرب ويهدم ما يتوقع أن يستفيد منه الصليبيون، ويمتعون به ويستفيدون من تحصيناته، كما كان من صلاح الدين في عسقلان سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وكان من الملك المعظم في القدس سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م(٢١٣).

ويلجأ بعض قادة الأيوبيين في سياستهم الحربية في الحصار، وخاصة في مواجهة الانقسامات الداخلية، إلى حصار التخويف لا إلى حصار القتال، وهذا ما يسمى

---

(٢١٠) مجهول. أعمال الفرنجة، ص١٢٢؛ ورنسيمان. الحروب الصليبية، م٢، ص٦٧٢.

(٢١١) عاشور. الحركة الصليبية، ج٢؛ ص٨١٣، ٨١٩؛ والحريري. الأخبار السنية، ص١٤٧ وما بعدها.

(٢١٢) ابن النظيف الحموي. التاريخ المنصوري، ص١٤٣؛ وعاشور. الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٩٣.

(٢١٣) الشيزري. جمهرة الإسلام، ص٣٦٩.

بالدبلوماسية، وبسياستي التهديد والترهيب، مع الاحتفاظ للقائد في نفسه بسرية مبتغاه هذا، حفظًا لخططه وتحقيقًا لأهدافه(٢١٤)، أو قد يكون من متطلبات أمن المعركة وسلامة العساكر استخدام أساليب الترهيب والترغيب والموادعة مع بعض الفئات، حيث الاستطاعة لتحقيق أسرع النتائج بأقل الخسائر، فسُمح للقائد الصليبي ريموند بالفرار في حطين، وفاوض صلاح الدين أسرى حطين على أنفسهم لتسليم حصونهم(٢١٥).

أما استراتيجية الحصار الطويل، ولاسيما حول المناطق الخصبة، حتى إنه ربما حدث تآلف بين الجيشين الصليبي والأيوبي - على حد قول بعضهم - فيبني الجيش المحاصر ثكناته ومساكنه حول هذه المناطق المحاصرة، وهو ما يبعث في نفوس الصليبيين اليأس من تحدي الحصار ومقاومته(٢١٦)، فلجأ الأيوبيون إلى تقسيم الجيش إلى مجموعات بأمرائها، كل منها تقاتل شطرًا من نهار(٢١٧)، فإذا

---

(٢١٤) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٣؛ والحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ/ ١٤٧١م). شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، المكتبة الوطنية، بغداد، (١٩٧٩م)، ص١٧٢؛ والعسلي، كامل جميل. بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، (١٩٩٢م)، ص٦٤.

(٢١٥) الحياري. صلاح الدين، ص١٩٨، ٢٠٣، ٢٢١.

(٢١٦) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٠١؛ والأصفهاني. الفيح القسي، ص١٧٠؛ والبنداري. سنا البرق الشامي، ج١، ص٣٠٧.

(٢١٧) ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م). تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، (د.ت)، ص٢١٩؛ وعاشور. الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٥٨؛ ولامب. شعلة الإسلام، ص١٩١.

ما كلَّت هذه القوات وعجزت عن المواصلة بقتالها والمثابرة بحصارها، جاءها البدل بمقدميهم، بقوات أوفر راحة وأكثر استعدادًا، وهذا كان من القوات الأيوبية في حصار صور والمدافعة عند حصار عكا، وهذا البدل ربما يكون بخبرة القوات المستبدلة وكفاءتها وتجربتها، إن لم تكن تفوقها أحيانًا(٢١٨)، ومن هنا اعتبرت هذه القوة الاحتياطية وقيادتها الموحدة عنصري التعبئة العسكرية الناجحة وعنوان النصر لكثير من المعارك التي انتصرت فيها العساكر الأيوبية على القوات الصليبية(٢١٩).

وهكذا كانت الحروب بكثرتها دربة في القتال، وإعطاء المواهب القتالية في إدارة العمليات العسكرية والجهاد عند الأيوبيين(٢٢٠)، ويذكر ابن منكلي في مخطوطته، أن الدربة على القتال قد تستغرق وقتًا طويلاً لترويض النفس، وقد تصل إلى أربعين عامًا - وربما الأصح شهرًا - وهذا الإتقان لا يصل إليه المقاتل إلا من خلال المشاركة العملية في العمليات القتالية(٢٢١)، وهذا ما قدر لهذه الدولة أن تعيشه بعصرها، فصلاح الدين وغيره قد حاربوا بالدين وحاربوا بالعساكر، وهما من الأصول الأربعة بالإضافة إلى النصيحة

---

(٢١٨) الصوري. الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٤٥، ١٠٤٦؛ وابن الأثير؛ الكامل، ج١٢، ص١٥؛ وابن العبري. تاريخ مختصر الدول، ص٢٢١.

(٢١٩) الأصفهاني. الفيح القسي، ص٤٥٦؛ وأبو شامة. الروضتين، ج٢، ص١٨٠ - ١٨١؛ وابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٣٤٥.

(٢٢٠) سميل. الحروب الصليبية، ص١٨٤.

(٢٢١) نفسه.

والشجاعة والثبات في صناعة الجندية، وهذا له أثر في استثارة النفس وإقدام الجند(٢٢٢)، واستعانت الممالك الأيوبية بما جاورها من ممالك إسلامية، وخاصة دار الخلافة العباسية، حتى اعتبر النصر أحيانًا "تأييدًا إلهيًا ونصرًا ملائكيًا"(٢٢٣)، لذا كان المسجد مكان الاستنفار(٢٢٤)، وطالما علل المؤرخ الصليبي أسباب الهزائم التي لحقت بالصليبيين بأنها قوى خارقة بسبب الآثام الظاهرة، لا لسوء الإدارة العسكرية وإخفاقات الخطط الحربية كما يراها الآخرون(٢٢٥)، وتأتي مثل هذه الانتصارات دفعًا معنويًا للعساكر الأيوبية، فيقول القاضي الفاضل في فتح القدس: "فإنه نور لا تكنُّه أغساق السُّدف - أي ظلمة الليل - ، وذكر لا تواريه أوراق الصحُف"(٢٢٦). وخير من يلخص لنا الاستراتيجية القتالية في حياة صلاح الدين خاصة قاضي عسكره ابن شداد فيقول: "ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاء عظيمًا، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه،

---

(٢٢٢) ابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٤٠ أ، ٤٠ ب، ٤١ أ.

(٢٢٣) ابن منكلي. التدبيرات السلطانية، ورقة ٦ أ؛ وسعداوي؛ جيش صلاح الدين، ص٤٤.

(٢٢٤) الدواداري. كنز الدرر، ج٧، ص١٠٢؛ ومونروند. الحروب المقدسة، م٢، ص٢٥٢.

(٢٢٥) ابن شداد. النوادر السلطانية، ص٩٢؛ وسبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٦٥٤، ٥٤٤.

(٢٢٦) الصوري. الحروب الصليبية، ج١، ص٥٨٦، ٥٩٩.

وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة...، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئًا من أخبار الجهاد، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتابًا، وكان رحمه الله كثيرًا ما يطالعه..."، وكان هدفه دائمًا التواصل بين العساكر وميادين القتال، حتى لا تركن إلى الكسل والخمول، وتبقى الخيول على أهبة الاستعداد(٢٢٧).

النتائج:

تلك هي الخطط العسكرية بإدارتها والاستراتيجية القتالية بأسلوبها، التي طالما اتبعها صلاح الدين وخلفاؤه في معاركهم في بلاد الشام، وكانت نتائج هذه الدراسة ما يلي:

١ - أن إدارة الجيش عند الأيوبيين قد اعتمدت على مؤسسة عسكرية متكاملة مترابطة قلما نجد لها مثيلاً عند دويلات معاصرة، رافقت القيادة الحملة، وشاركتها في القتال، وكان لهذه القيادة مجلس عسكري، ولهذا المجلس مقر متنقل تمثل بالخيمة "الخركاة"، التي تعد لهذا الغرض.

٢ - المجلس العسكري هو مجلس استشاري يشارك فيه قادة الفرق العسكرية المشاركة من عساكر نظامية وجند إقطاعي ومتطوعة.

---

(٢٢٧) القاضي الفاضل. الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم، اختيار عبدالرحيم بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، تحقيق د. أحمد بدوي، القاهرة، (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ص٢٠؛ وابن شداد. النوادر السلطانية، ص ٧٦، ٧٧.

٣ - أن المشاركة الحربية لم تقتصر على فئة دون غيرها، فكانت الحلقة السلطانية وقادتها من المماليك الذين يمثلون قوات خاصة أبرز المشاركين، وهؤلاء المقدمون يختارون بناء على دراية وخبرة بالأمور العسكرية، وهناك فئات عسكرية أخرى تتولى أمورًا عسكرية مساندة، حتى الجماعات النصرانية الشرقية على أرض الشام أدركت الخطر الغربي على وجودها، فأدت دورًا لا بأس به.

٤ - ازدادت أعداد الجيش الأيوبي حسب الاستراتيجية العسكرية المخطط لها؛ تحديًا للأخطار المحيطة بالمنطقة.

٥ - أن الإخلاص والفداء والانتماء كانت الأساس المتين في معارك الأيوبيين مع أعدائهم، فاتجه الأيوبيون للتخلص من العناصر الساخطة في الجيش، مثل بعض الصقالبة والمصامدة والأرمن والزنوج، ... وغيرهم، الذين كانت لهم مصالح آنية مع بعض الأطراف، تجعلهم يوظفون سيوفهم لدافع الأجر الأكبر.

٦ - هناك تخصصات في المهام العسكرية، فبعضهم اختص بمهام المشاة، وبعضهم اختص بالرمي، وآخرون اختصوا بنقب الأسوار...إلخ.

٧ - أن جل الجيش الأيوبي كان من الكرد والترك؛ لازدياد الثقة بهم، ولقوتهم وشدة إخلاصهم.

٨ - كان لإدارة الجيش بديوانها من ناظر وقاض وكاتب وغيرهم مهمات وقت السلم، وأخرى في أوقات الحرب.

٩ - أن القيادة الأيوبية حرصت على توفير الأمن النفسي والاجتماعي للعساكر في جيشها، وذلك من خلال توفير الأمن والأمان لأسرهم، بعد خروج أربابها إلى ساحات القتال.

١٠ - قلما لجأت الإدارة الأيوبية إلى دفع عطاء أو أية مبالغ نقدية لعساكرها، وإنما اعتمدت على نظام تقسيم الإقطاعات على قادة هؤلاء العساكر، بالشكل الذي وفر لهم حماية لأراضيهم وممتلكاتهم، وزاد من الانتماء لهذه الأرض.

١١ - أن ميرة الجيش ومؤونته قد توفرها الإدارة الأيوبية أحيانًا، وتوفر العساكر مؤونتها بنفسها في أحيان أخرى ولمدة زمنية محددة.

١٢ - أن المخابرات الأيوبية وعيونها كانت من أسرار نجاح الأيوبيين في حروبهم ومعاركهم، حيث ضرورة المعرفة المسبقة عن عدد عدوهم وعدته، ومعرفة نقاط القوة والضعف عنده، وهو ما أتاح لهم وضع الخطط العسكرية العلمية المحكمة بأحداثها وتفاصيلها.

١٣ - اختار الأيوبيون فئات عساكرهم بمواصفات خاصة، حيث تتناسب مع موقعها في سير الأحداث، فاليزك اختيروا من أهل النصح والنجدة والتجربة، وبمواصفات صحية وجسمية وثقافية معينة، وقسم الجيش الأيوبي إلى أطلاب وكراديس وحلقات، لكل منها عددها وعدتها ومواصفاتها، واعتمد الأيوبيون من خلالهم على خطة تخميس الجيش، ومارسوا استراتيجية الحصار الطويل

في حروبهم، حتى ربما حدث تآلف بين الجيشين المتحاربين.

١٤ - وأخيرًا نجد أن الأيوبيين قد واجهوا مشكلة تشكيل قوتهم البحرية، وإن نالت من قادتهم كل اهتمام، وتمثلت في عدم الرغبة في الانضمام إلى الأسطول لقلة المعرفة بالبحر؛ وللحالة الاقتصادية والاجتماعية المتدنية لرجال الأسطول.